دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)
ص.ب: ٩٤٦، بيروت - لبنان

مجموعة منوّعة من منشوراتنا اللغوية والفلسفية

معاجم :

المنجد في اللغة والادب والعلوم
(الطبعة التاسعة عشرة معاد النظر فيها ومزيد عليها)

المنجد الأبجدي
(على الطريقة الابجدية الكاملة)

منجد الطلاب
(طبعة جديدة منقحة ومزيد عليها)

المنجد المصوّر
(١٨٦ كلمة مشروحة مع ٣٢ لوحة ملونة)

كتب فلسفية :

ابن رشد ، كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال
قدم له وعلق عليه الدكتور البير نصري نادر

الامام أبو حامد الغزالي ، تهافت الفلاسفة
عن النص الذي اتبعه الأب بويج . قدم له ماجد فخري

ابو نصر الفارابي ، كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين
قدم له وحققه الدكتور البير نصري نادر

ابو نصر الفارابي ، كتاب آراء اهل المدينة الفاضلة
قدم له وحققه الدكتور البير نصري نادر

ابو نصر الفارابي ، كتاب السياسة المدنية
حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور فوزي متري نجار

كتاب اثبات النبوات لأبي يعقوب السجستاني
تحقيق عارف تامر

كتاب الإيضاح لشهاب الدين أبي فراس
تحقيق وتقديم عارف تامر

دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية) — ص. ب. **٩٤٦** — بيروت (لبنان)

يوحنّا قمير

إخوان الصّفاء

دراسة - مختارات

طبعة ثالثة مُنقّحة

دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)
ص.ب: ٩٤٦، بيروت - لبنان

عصر اخوان الصفاء

ظهرت جماعة اخوان الصفاء ـ كما سوف نرى ـ في العصر العباسي الثالث (٩٤٦ـ١٠٥٥=٣٣٤ـ٤٤٧هـ) . فما كانت ميزات ذاك العصر سياسياً ، واخلاقياً ، وفكرياً ؟

امتاز ذاك العصر ، من الناحية السياسية ، بامرين : بتفكك المملكة الاسلامية ، وزوال سلطة الخلفاء الزمنية .

تفككت المملكة الاسلامية الى دول عديدة ، اشهرها ثلاث : دولة بني بويه في فارس وبغداد ، ودولة آل حمدان في حلب ، والدولة الفاطمية في مصر .

والخليفة ذهبت هيبته ، وفقد سلطانه ، واكتفى الأمراء بان يقدّموا الخضوع لسلطته الدينية ، وينالوا العهد منه .

اما الحياة الاخلاقية فقد ساءت اشد سوء . الجدل الديني الفلسفي اضعف الايمان في النفوس ، وشهوة الثراء واللهو اباحت كل حرام ، فاذا النفاق يسود ، والظلم يفشو ، واذا بك ترى كيف

نظرت « مظالم قائمة ، ومحارم منتهكة ، ونفوساً مهدرة بغير اثم ، ودماء مطلولة بغير ذنب ، واموالاً مسلوبة في غير حق . »

(طه حسين)

وهى السلطان السياسي واضطرب ، ووهت الاخلاق العامة وانحطت ، اما الحياة الفكرية فقد رقيت ، وبلغت في الادب والفلسفة ذرى شامخة .

ففي هذا العصر نبغ المتنبي وابو فراس ، وفيه ظهر طائفة من الفلاسفة ، ظهر الفارابي ، وابن سينا ، وابو العلاء ، واخوان الصفاء .

في هذا العصر هضمت العقول ما نقله العرب عن الفكر اليوناني والفارسي والهندي ، ووعى المسلمون ما يعلمه دينهم وتعلمه الاديان الاخرى ، وكانت بغداد ملتقى الاراء والعقائد .

واذا تجاور في عصر واحد ، كما تجاور في العصر العباسي الثالث ، فساد سياسي اخلاقي ، ونهضة علمية فكرية ، فمن الطبيعي ان ينهض افراد يتلمسون اسباب انحطاطهم ، ويحاولون دواء لضعفهم ، ويعملون على الرقي ببيئتهم .

وهل رمى اخوان الصفاء الى غير هذا الهدف ، وغير هذا الاصلاح ؟

اخوان الصفاء

اخوان الصفاء جماعة يهمّك ان تعرف من كانوا قدر ما يهمك ان تعرف ما قالوا ، وان تتبين اثرهم في الجماعات قبل ان تتبينه في تطور الفكر العام .

ذاك أن اخوان الصفاء ما فكّروا بمَعزِل عن بيئتهم وعصرهم ، ما عُنوا بالفلسفة طلباً لمتعة عقلية خالصة ، او بحثاً عن حق نظري مجرد ، بل كانت علومهم وسيلة ، وفلسفتهم سبيلاً ، اما الغاية فنفع عام يشملهم ويشمل الآخرين ، وتعاون صادق وفيّ يعود بالخير على الجماعة .

وان اسمهم نفسه يعني التعاون والتآخي ، ويعني اهدافاً عملية يسعى اليها التآزر ، ويحققها الاخلاص في العمل ، والوفاء عند الشدة . ولعل هذا الاسم مأخوذ عن كتاب دليلة ودمنة ، من باب الحمامة المطوقة ، حيث جاء :

ــ قال دَبْشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعتُ مثل المتحابّين كيف قطع بينهما الكذوب ، والى ماذا صار عاقبة امره

من بعد ذلك ، فحدثني ، ان رأيت ، عن اخوان الصفاء ، كيف يبتدئ تواصلهم ، ويستمتع بعضهم ببعض .

– قال الفيلسوف : ان العاقل لا يعدل بالاخوان شيئاً ، فالاخوان هم الاعوان على الخير كله ، والمؤاسون عند ما ينوب من المكروه[1].

فمن كان اخوان الصفاء هؤلاء ؟ وكيف تعاونوا ؟ والى مَ هدفوا ؟

ليس الجواب عن هذه الاسئلة بالامر السهل ، لما اكتنف اخوان الصفاء من اسرار ، واحتاطوا به من كتمان ، ولما شاب اراءهم من غموض ، وعمدوا اليه من قصص وامثال . على انّا سنستعرض اهم ما خلّف لنا التاريخ من شهادات ، ونستقصي ما جاء في رسائل اخوان الصفاء من اعترافات ، علّنا نتجاوز التخمين الى اليقين ، ونعتاض عن الترجيح برأي جازم صريح .

•

تحدث جمال الدين القفطي († ١٢٤٨–٦٤٦ ه) ، في كتابه تراجم الحكماء ، عن جماعة اخوان الصفاء قال :

« هؤلاء جماعة اجتمعوا على تصنيف كتاب في انواع الحكمة الاولى ، ورتبوه مقالات ...

« ولما كتم مصنفوها اسماءهم ، اختلف الناس في الذي وضعها ، فكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدس والتخمين . فقوم قالوا : هي من كلام بعض الائمة من نسل علي بن ابي طالب ، واختلفوا في اسم الامام الواضع لها اختلافاً لا يثبت له حقيقة . وقال آخرون : هيَ تصنيف بعض متكلمي المعتزلة في العصر الاول .

---

١) ويلي مثل الحمامة المطوقة التي وقعت في شبكة مع رفيقاتها فتعاون وطرن معاً في وثبة واحدة ، فاقتلعن الشبكة ، ونجون الى جرذ قطع شباكهن وخلصهن .

« ولم ازل شديد البحث والتطلب لذكر مصنّفيها حتى وقفت على كلام لابي حيّان التوحيدي[1] جاء في جواب له عن امر سأله عنه وزير صمصام الدولة بن عضد الدولة ، في حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة . وصورته : قال ابو حيان حاكياً عن الوزير المذكور :

— حدّثني عن شيء هو اهم من هذا اليّ ، واخطر على بالي ! اني لا ازال اسمع من زيد بن رِفاعه قولا يريبني ، **ومذهباً لا عهد لي به** ، وكناية عما لا احقّه ، واشارة الى ما لا يتوضح شيء منه ... واشهد منه في عرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها . فما حديثه ، وما شأنه ، وما دَخلته ؟ فقد بلغني ، يا ابا حيان ، انك تغشاه ، وتجلس اليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة . ومن طالت عشرته لانسان صدقت خبرته ، وامكن اطّلاعه على مستكن رأيه ، وخافي مذهبه ...

— فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهن وقاد ، ومتسع في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ ايام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصّر في الاراء والديانات ، وتصرف في كل فنّ ...

— قال : فعلى هذا ، ما مذهبه ؟

— قلت : **لا ينسب الى شيء** ، ولا يعرف له حال ، حيث انه تكلم في كل شيء ، وغليانه في كل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه . وقد اقام بالبصرة زماناً طويلاً ، وصادق بها جماعة لاصناف العلم ، وانواع الصناعة ، منهم : ابوسليمان

---

١) مات ابو حيان التوحيدي سنة ٤١٤ هـ.

محمد بن مُشعِر البُستي ، وابو الحسن علي بن هارون الزَّنجاني ، وابو احمد المِهرجاني ، والعوفي ، وغيرهم . وصحبهم ، وخدمهم . وكانت هذه العصابة قد تآلفت بالعِشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، **فوضعوا بينهم مذهباً** زعموا انهم قرّبوا به الطريق الى الفوز برضوان الله ، وذلك انهم قالوا : ان الشريعة قد دُنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لانها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا انه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال .

وصنفوا خمسين رسالة في جميع اجزاء الفلسفة ، علمياً وعملياً ، وافردوا لها فهرساً ، وسمّوها « رسائل اخوان الصفاء » وكتموا فيها اسماءهم ، وبثّوها في الورّاقين ، ووهبوها للناس » .

نستخلص من هذا النص اموراً هامة تتعلّق بنشأة الجماعة وموسسيها ، وتتعلق بمذهبها وغايتها وتآليفها .

اما النشأة فكانت في البصرة ، في القرن العاشر المسيحي والرابع الهجري .

واما المؤسسون فكانوا من العلماء الفضلاء تصادقوا وتصافوا ، وكَتموا اسماءهم عن الناس . ولعل اشهرهم وواضعي الرسائل هم هؤلاء الخمسة الذين ذكرهم ابو حيان .

واما المذهب فنسبهم قوم الى الشيعة ، ونسبهم آخرون الى المعتزلة ، وقال ابو حيان عن زيد بن رِفاعه انه لا يُعرف له مذهب .

واما الغاية فكانت وضع مذهب يجمع بين الفلسفة اليونانية والاسلام ، فتبدد الفلسفة ما داخل الاسلام من ضلالات ، ويتضافر

الدين والفلسفة على البلوغ بالانسان الى كمال الذات ورُضوان الله .

واما التآليف فخمسون رسالة عرضوا فيها جميع اجزاء الفلسفة ، ونشروها باسم اخوان الصفاء ، ووزعوها على الوراقين للبيع ، او وهبوها هبة للناس .

ولنعد على ما استخلصنا من هذا النص بشيء من النقد والتفصيل.

١ ــ النشأة

اما النشأة في البصرة فلا نجادل فيها ، او نشك . على ان اخوان الصفاء قد تجاوزوا هذه المدينة ، فأتوا دون شك بغداد ، وانتشروا في غيرها من المدن . يؤيد هذا القول ما جاء في رسائلهم : «ان لنا اخوانا واصدقاء ، من كرام الناس وفضلائهم ، متفرقين في البلاد . فمنهم طائفة من اولاد الملوك والامراء والوزراء والعمال والكتاب ، ومنهم طائفة من اولاد الاشراف والدَهاقين[١] والتجار والتُنّاء[٢] ، ومنهم طائفة من اولاد العلماء والادباء والفقهاء وحملة الدين ، ومنهم طائفة من اولاد الصنّاع والمتصرفين وافناء الناس . وقد ندبنا لكل طائفة منها احداً من اخواننا ، ممن ارتضيناه في بصيرته ومعارفه ، لينوب عنا في خدمتهم ، بالقاء النصيحة اليهم.»[٣] وهذا يعني انهم كانوا منتشرين ، كثيري الاتباع ، منظّمين طوائف متجانسة ، وانهم قد اعدوا اخواناً حاذقين ينتدبونهم للدعوة والارشاد . ومن يدري ؟ لعل زيد بن رفاعه كان مكلفاً بدعوة وزير صمصام الدولة !

---

١) الدهاقين : جمع دهقان وهو حاكم الاقليم .

٢) التناء : جمع تانئ وهو المقيم في مكان ، ولا يبدو بوضوح المعنى المقصود .

٣) رسائل اخوان الصفاء : المطبعة العربية بمصر : الجزء الرابع : ص ٢١٤ .

ولكن متى نشأت هذه الجماعة ؟

لا نستطيع تحديد سنة بالضبط ، انما نعلم اموراً : نعلم ان العصر العباسي الثالث — وتفكّك الامبراطورية الاسلامية — بدأ سنة ٣٣٤ هـ بدخول بني بويه بغداد . ونعلم ان من نزعات اخوان الصفاء توحيد ما تبدّد ، وجمع ما تشعّب . ونعلم ان رسائل اخوان الصفاء كانت معروفة سنة ٣٧٣ هـ ، وان زيد بن رفاعه، مؤسس الجماعة ، كان ما يزال حياً نشيطاً في هذا الوقت . ونعلم ان بعض رسائل اخوان الصفاء — الّم يكن كلها — قد كُتب بعد ٣٤٩ هـ. لاننا نجد في احدى هذه الرسائل شعراً قاله المتنبي في كافور هذا العام نفسه[١] . من كل ذلك نستنتج ان الشعور بمساوئ تكفّك الامبراطورية السياسي والديني قد حدا علماءَ على تأسيس جماعة تداوي هذا التفكك ، وما سبقه ويرافقه من انحطاط اخلاقي ، وان هذا التأسيس قد جرى ما بين ٣٣٤ هـ و٣٧٣ هـ ، او ، بنوع أدقّ ، حوالى نصف القرن الرابع الهجري .

٢ — الاعضاء

لسنا نعرف من اسماء اخوان الصفاء سوى خمسة ، هم الذين ذكرهم القفطي كمؤسسي الجماعة ، ومؤلفي الرسائل . وهؤلاء الخمسة هم : ابو سليمان محمد بن مشعر البستي ، وابو الحسن علي بن هارون الزنجاني ، وابو احمد المهرجاني ، وابو الحسن العوفي ، وزيد بن رفاعه .

اما الباقون ، فان جهلنا اسماءهم ، فنحن نعلم انهم كانوا كثيرين ، وكانوا جماعة منظّمة .

١) المختارات : ص ٥١ .

وعليه فكيف كانوا يُختارون ، ويُلقّنون العلوم؟ وما كانت صلات بعضهم ببعض ؟

ان جل ما نعرف من هذا القبيل مأخوذ عن رسائل اخوان الصفاء. واليك خلاصة ما قالوه :

يرى اخوان الصفاء ان النشوء على مذهب ، والتعصب له ، حاجزان كبيران دون قبول الحق . وعليه حثوا على دعوة الشبّان السالمي الصدور ، المبتدئين بالنظر في العلوم ، الراغبين في الآخرة ، ونصحوا بالاعراض عن دعوة المشايخ الهرمة ، المتمكنين في باطلهم المتعصبين لمذهبهم ، متمثّلين في الحالين بما قال الشاعر :

اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا[١]

ويرى اخوان الصفاء انتظار الفرصة السانحة لدعوة شخص ، كما يرون التدرج في تلقين التعليم ، ومراعاة قدرة العقول على الفهم ، والقلوب على تلقي الاسرار : « ان شيعتنا واخواننا المتفرقين في البلاد ، وسائر من يُنسب الينا ، فهم في احوالهم ومراتبهم على منازل ... فنريد ان نذكر كل طائفة منهم باوصافهم ، وندل عليهم بعلاماتهم ، حتى اذا دخلت مدينة او بلداً من البلدان ، ولقيت منهم احداً ، تبينتهم وعرفتهم بسيماهُم ، فلقيتهم بالتحية السلام ، وداخلت كل طائفة منهم بالطف ما تقتدر عليه من الرفق والمداراة ، وذاكرتهم من علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم ، والقيت اليهم من اسرارنا حسبما تحتمله عقولهم ، وتتسع له نفوسهم ، وتبلُغ اليه هممهم ، وتتصوره افهامهم »[٢].

---

١) رسائل ٤ : ١١٤
٢) مختارات : ص ٥٧

ويفترض هذا تقسيمَ الاعضاء الى طبقات ، وتفاوتاً بين الطبقات في العلوم ، كما يفترض اسرارًا مكتومة ، واجتماعات سرية . وقد تحدث اخوان الصفاء عن هذا التستر بصراحة ، قالوا : « ينبغي لاخواننا ، ايدهم الله ، حيث كانوا من البلاد ، ان يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه ، في اوقات معلومة ، لا يداخلهم فيه غيرهم ، يتذاكرون فيه علومهم ، ويتحاورون في اسرارهم . »[1]

وقد جاء في الرسالة الجامعة ، وصف مسهب لهذه الاجتماعات ، فاذا هي تُعقد كل اثني عشر يوماً مرة ، واذا الاخوان يحضرون على احسن ما يكون من الزينة ، واذا رئيسهم يظهر عليهم بزيّ خاص مهيب ، وجلال ووقار ، فيعظ ، ويذكّر ، ويمتحن ، ويشرح الاسرار[2].

وفي الرسالة الجامعة ايضاً نجد ابجدية خاصة وضعوا حروفها ، واصطلحوا على ان يكتبوا اسرارهم بها : « رأينا ان نكتب ما نريد ان لا يشرك اخواننا في الوقوف عليه غيرهم ، ولا يصل اليه على ما هو به الا هم ، بحروف ركبناها ، وكلمات نظمناها ، ... اذا وقفت عليها ، وبان لك معناها ، انفتح لك غلقها ، وبان لك معناها ، وحصل بيدك مفتاحها . »[3] ثم يثبتون صورة هذه الحروف .

واما علاقات الاعضاء فعلاقات اخوّة لا يشوبها نقص ، وصداقة لا يخالطها رياء ، وتعاضد لا يحول دونه الموت . يرى اخوان الصفاء ان خير النعم اثنتان : المال والعلم ، اولـهما لحياة الدنيا ،

---

١) رسائل ٤ : ١٠٥

٢) المختارات : ص ٥٤–٥٧

٣) الرسالة الجامعة ١ : ٥٢٢–٥٢٣

والثاني لحياة الآخرة . وعليه فمن رُزقهما جميعاً ضمّ اليه اخاً محروماً ، فانفق عليه من ماله ، وهذّبه بعلمه . اما من رزق علماً دون مال فليتعاون مع من رزق مالاً دون علم ، وليكن الاخوان مكمّلين بعضهم بعضاً ، دون ان يمُنّ احد على آخر او يحتقره[١]. ويتجاوز التعاون العلم والمال ، فيفرض على الفرد التضحية بالحياة اذا اقتضى ذلك غير الجماعة[٢].

٣ — المذهب

لعل مذهب اخوان الصفاء اغمض ما يجده الباحث في آرائهم ، واهم ما يستهدي به على فهم حقيقتهم .

ولعل خير السبل الى معرفة هذا المذهب هو ان نستعرض رأيهم في الاديان والمذاهب ، ثم نرى ما قاله المؤرخون في مذهبهم ، ويمكن ان نقول .

●

رأى غير اخوان الصفاء تعدد الاديان والمذاهب فاضطرب وشك.

اما اخوان الصفاء فعللوا ذلك تعليلاً طريفاً . قالوا ان الدين واحد ، لان اعتقاد الانبياء واحد ، واما ما تعدد واختلف فشرائع اولئك الانبياء : « دين الانبياء دين واحد ، ومسلكهم جميعاً مسلك واحد ، ومقصدهم مقصد واحـــد وغرض واحد ، وان اختلفت شرائعهم . »[٣]

---

١) رسائل ٤ : ١١٥–١١٧

٢) مختارات : ص ٤٦–٤٧

٣) رسائل ٤ : ٢٢٨

النبي بشر فاضت عليه من النفس الكلية قوة عقلية خاصة ، اذن الله بفيضها في وقت من الاوقات[1]. وبقوة هذا الفيض تنجلي للانبياء نفس الحقائق ، ويتفقون سرًا وعلانية على نفس الدين .

على ان الانبياء يراعون في تعليم الدين حالة الجماعات ، وظروف البيئة والزمان ، فينوعون الاوامر والنواهي ، ويختلفون في النواميس والسنن ، فتتباين الشرائع وتتعدد ، وما تباينت الحقيقة او تعدد الدين . وان شاء الانبياء في ذلك شأن الطبيب الرفيق الذي يبدل الادوية مع الاشخاص والامراض ، وينوع العلاج مع الفصول والحالات[2].

•

والنبي لا يكتفي بمراعاة تباين الجماعات ، بل يراعي ، في جماعة معينة ، تنوع افرادها ، وتفاوت العقول فيها . ولهذا اتت الشرائع بالفاظ مشتركة ، فكان لها ظاهر وباطن ، وكان الناس في الدين ثلاث طوائف : الخواص ، والمتوسطون ، والعامة من النسوان والصبيان ومن يلتحق بهم في العقل من الرجال . فالخواص يعلمون باطن الشريعة . ويعملون به . والمتوسطون يقرّون بالباطن ، ويعملون بالظاهر . والعامة تعتقد الظاهر وتعمل منه وسعها ، ودينها لصلاح دنياها من صلاح آخرتها اجدى[3].

•

ولكن ان علّل اخوان الصفاء تعدد الشرائع ، فكيف يعللون تعدد المذاهب في الشريعة الواحدة ، في الاسلام او النصرانية مثلاً ؟

---

١) رسائل ٤ : ١٨٢

٢) مختارات ص ٦٢

٣) رسائل ٤ : ١٧٦، ١٨٥، ١٩٠
الرسالة الجامعة ٢ : ٢٤٤ = مختارات : ص ٥٥

ان النبي ، في نظرهم ، لما جمع في نفسه من جليل الصفات ، يقوى ما دام حياً على التأليف بين القلوب ، والتوفيق بين العقول ، فيتوحد رأي اتباعه ، ويتوحد المذهب .

انما اذا توفي النبي ، عز اجتماع صفاته في إمام يخلفه ، فاختلفت الآراء مع الايام ، وتصدعت الشريعة ، ونشأت المذاهب[1].

ويرى اخوان الصفاء انه لا بد ، عند تعذر الامام الصالح ، من تعاون جماعة من الاخوان الفضلاء يهتدون بالشريعة ، ويسترشدون بالعقل ، لعله يجتمع لهم من ذلك ما اجتمع للامة في نبي[2].

•

واذا كانت هذه اراؤهم في الاديان والمذاهب ، فهل كان لهم مذهب خاص ، وما هو هذا المذهب .

لقد سمعنا جمال الدين القفطي يروي لنا تردد معاصريه في مذهب اخوان الصفاء ، وانقسامهم في تحديد هذا المذهب الى فئتين : فئة ترى انهم شيعة ، واخرى ترى انهم معتزلة . وان اكثر من درسوا اخوان الصفاء لا يزالون يترددون بين هذين الرأيين ، وان ربا اتباع الرأي الاول .

لقد ذهب بعضهم — كدي بور ، وماكدونلد ، وماسينيون — الى ان اخوان الصفاء كانوا قرامطة .

وذهب البعض الآخر — من امثال كازانوفا ، والطيباوي ، وطه حسين — الى انهم كانوا اسماعيلية .

---

١) رسائل ٤ : ٢٧، ١٧٩
٢) مختارات : ص ٦٥

اما عادل عوّا فيؤكد أنهم كانوا معتزلة، معتنقاً بذلك رأي جرجي زيدان ، وبرون ، وغيرهما .

ولعل الذي دفع الى هذا التباين في الحكم هو الشبه القائم بين هذه المذاهب وبعض آراء اخوان الصفاء :

كالقرامطة عُني اخوان الصفاء بالعلوم الدخيلة ، واوّلوا القرآن تأويلاً رمزيّاً ، ودعوا الى التسامح والعدالة، والّفوا جماعة سرية لبلوغ هدفهم .

وكالاسماعيلية مزجوا الفلسفة بالدين ، وقالوا بوحدة الدين وتعدد الشرائع ، واغرقوا في الاستناد الى العدد .

وان القرامطة والاسماعيليين اقبلوا بدورهم على رسائل اخوان الصفاء يتفهّمونها ، ويحتجون بها ، ويقتبسون من تعاليمها ، فقوي الظن بوحدة المذهب .

اما شبه اخوان الصفاء بالمعتزلة فيبدو في ذاك المزج الفلسفي الديني العنيف ، في العناية بالدين ، وفي اللجوء الى الفلسفة لفهمه وافهامه .

اما نحن فلا نطمئن الى واحد من الآراء السابقة ، ولنا على ذلك ادلة :

١ — تقول الشيعة بضرورة امام، وبضرورة امام معصوم، ويرى اخوان الصفاء ان العقل رئيسهم ، وان العقل المسترشد بالشريعة يقوم مقام الامام[1] .

٢ — ما كان تحكيم العقل في شؤون الدين مقصوراً على

١) المختارات : ص ٦٥

المعتزلة ، بل كل من عُني بالفلسفة ، وتصدّى لشؤون الدين ، حكّم العقل ، ومزج الفلسفة بالدين .

٣ — يؤمن اخوان الصفاء بما لا تؤمن به شيعة او معتزلة : يؤمنون بتناسخ النفوس الشريرة في اجسام حيوانية ، هي جهنم ، وبان كل النفوس تنتهي الى نعيم ، فلا عذاب ابدي ، ولا بعث للاجساد[١] .

٤ — ابو حيّان التوحيدي عالم ، وصديق زيد بن رفاعه ، وهو ، اذ يُسأل عن مذهب صديقه ، يقول انه لا يُنسب الى مذهب ، وان اخوان الصفاء اجتمعوا ووضعوا بينهم مذهباً .

٥ — ينهى اخوان الصفاء عن التعصب لمذهب ، لان مذهبهم جامع لكل ما في المذاهب : « ينبغي لاخواننا ، أيّدهم الله تعالى ، ان لا يعادوا علماً من العلوم ، او يهجروا كتاباً من الكتب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم جميعها . »[٢]

نستنتج من كل ما تقدّم ومما نعرفه من رسائل اخوان الصفاء ، ان مذهبهم كان مذهباً اختيارياً جامعاً لكل ما ظنّوه حقاً في ما عرفوا من شرائع عصرهم ومذاهبها ، ومن حكماء اليونان وعلمائها . على انهم قد راعوا في اختيارهم ما هو سائد في بيئتهم ، فطغى الاسلام في عقيدتهم على الشرائع الاخرى ، وطغت مذاهب الشيعة على المذاهب الاخرى ، ولكنهم ما اقتصروا على الاسلام شريعةً ، ولا على الشيعة — او مذاهبها — مذهباً .

---

١) المختارات : ص ٧٦
٢) رسائل ٤ : ١٠٥

وهذا المذهب الاختياري يشرح لنا تباين دارسيهم في تحديد مذهبهم ، لأن كلّ دارس تنبّه الى مواطن شبه بين اخوان الصفاء وبين مذهب اقتبسوا منه ، فنسبهم الى هذا المذهب .

وهو مذهب ينسجم مع نظرتهم الى المذاهب ، اذ كلها متفرعة من شرائع علّمها انبياء ، وينسجم مع غايتهم وهي استئلاف جميع ابناء بيئتهم، والانضواء بهم تحت لواء جماعتهم ، وينسجم مع تسامحٍ ديني دعوا اليه ، ناهين عن كل عنف ، مترخصين مع كل رأي .[1]

٤ ــ الغاية

قال ابو حيان ان غاية اخوان الصفاء كانت تطهير الدين بالفلسفة ، سعياً وراء الكمال ، وطلباً لرضى الله . فهل هذا صحيح؟ هل ارادوا اصلاحاً دينياً اخلاقياً ، وقصروا كل جهودهم عليه ؟

الواقع ان رسائلهم مزيج فلسفي ديني ، خلطوا فيه افكار فلاسفة اليونان بتعاليم اديان الشرق ــ سيما الاسلام منها ــ وصبغوا الكل بصبغة من الزهد ، ودعوة الى رياضة النفس ، وصلاح السيرة .

واذاً هدف اخوان الصفاء حقاً الى اصلاح اخلاقي ، استعانوا في سبيل البلوغ اليه بكل مجاري بيئتهم الفكرية ، بكل ما وصل اليهم من علوم ، وعرفوه من مذاهب ، وبكل ما علمته الاديان ودعا اليه الانبياء .

على ان الاصلاح الاخلاقي ما كان هدفهم الاوحد . ان اخوان الصفاء ، في اكثر من نص في رسائلهم ، يدعون الى تحقيق ملك

---

١) مختارات : ص ٦٥-٦٦، ٧٩-٨١

دنيوي تسود فيه العدالة ، ويعم الخير : « وقد ترى ، ايها الاخ البار الرحيم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، انه قد تناهت دولة اهل الشر ، وظهرت قوتهم ، وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان ، وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان . واعلم بان الدولة والملك ينتقلان في كل دهر وزمان ، ودور وقران ، من امة الى امة ، ومن اهل بيت الى اهل بيت ، ومن بلد الى بلد . واعلم ، يا اخي ، ان دولة اهل الخير يبدأ اولها من قوم علماء حكماء ، وخيار فضلاء ، يجتمعون على رأي واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ، ودين واحد... ويكونون كرجل واحد في جميع امورهم ... فهل لك ، ايها الاخ البار الحكيم ، ايدك الله بروح منه ، بان ترغب في صحبة اخوان لك نصحاء ، واصدقاء لك اخيار فضلاء ، هذه صفتهم ؟ »[1].

واذاً هدف اخوان الصفاء الى اصلاح شامل :

يصلحون الدين بتطهيره بالفلسفة من الجهالات والضلالات .

ويصلحون الاخلاق بدينٍ طهّروه ، وبفلسفةٍ طهّروه بها ، وبتعاليم مأخوذة عن الصوفيين والصالحين .

ويصلحون السياسة فيحلّون دولة اهل الخير محل دولة اهل الشر ، مستعينين على ذلك بمن اصلحوا واستتبعوا .

وكانت خطتهم العمل في السر ، وباللين والاقناع ، الى ان يكثر اتباعهم ويقووا ، فيظهروا ، ويستولوا على الحكم ، ويكرهوا الناس على تقويم سبلهم . تظهر هذه الخطة في مثل من امثالهم ، مثل طبيب حكيم دخل مدينةً كلّ اهلها مرضى ، ولكنهم يجهلون

---

١) رسائل ١ : ١٣١ .

مرضهم ، ويرفضون ايّ علاج . وبدأ الطبيب يقنعهم واحداً واحداً على ان يتداووا ، ويشفيهم واحداً واحداً ، مستعيناً بمن شفى على اقناع المرضى بالتداوي ، حتى ابرأ اكثر اهل المدينة ، فظهر عندئذٍ ، واكره الباقين على التداوي[1] .

٥ — الرسائل

جاء ، في الرسالة الجامعة ، ذكر لتآليف اخوان الصفاء ، فاذا هي : المدارس الاربع ، والكتب السبعة ، والجَفْران[2] ، والرسائل الخمس والعشرون ، والرسائل الاحدى والخمسون ، والرسالة الجامعة[3] .

واذاً كان لاخوان الصفاء كتب غير رسائلهم المعروفة الآن . كان الاعتقاد السائد ، قبل طبع الرسالة الجامعة ، ان هذه الرسالة ستكشف النقاب عن كل اسرار الجماعة ، وها نحن الآن امام اسماء كتب لا نعرف عنها شيئاً .

كل رسائل اخوان الصفاء المعروفة اصبحت مطبوعة ، فكم عددها ؟ وما مواضيعها ؟

قال ابو حيان التوحيدي ان عدد الرسائل خمسون ، وهو عدد ناقص كما سيتضح لنا .

وطبع في مصر اربعة اجزاء جاء ، في الفهرست منها ، ان عدد الرسائل اثنان وخمسون ، وان ثم رسالة ثالثة وخمسين ، خارجة عن الطبعة ، تدعى الرسالة الجامعة . وقد حوت الطبعة المصرية فعلاً

---

١) مختارات : ص ٦٨—٦٩ .
٢) الجفر علم يدعي اصحابه معرفة حوادث هذا العالم حتى انقراضه .
٣) المختارات : ص ٥٦

اثنتين وخمسين رسالة مع نفس العناوين الواردة في الفهرست . على انك تدهش اشد الدهش ، اذ تطالع الرسالة الاخيرة ، اي الثانية والخمسين حسب ترتيب الفهرست والطبعة ، فتقرأ ، في ثلاثة مواضع على الاقل[1] ، انها الرسالة الحادية والخمسون ، ثم تجد هذا العدد نفسه — ٥١ — في سائر النصوص الواردة في الرسائل[2] .

وفي الرسالة الجامعة نجد نفس التناقض . انها تستعرض ، حين توجز اغراض الرسائل ، اثنتين وخمسين رسالة ، هي رسائل الطبعة المصرية بعناوينها ، وان اتى تبديل يسير في ترتيبها . اما العدد فاكثر مخطوطات الرسالة الجامعة تجعله واحداً وخمسين ، ولا تشذّ سوى مخطوطة دمشق ، وهي مخطوطة حديثة ، يظهر فيها تعمد الناسخ الاصلاح .

واذاً نحن امام طبعتين — طبعة الرسائل المصرية وطبعة الرسالة الجامعة — تحويان اثنتين وخمسين رسالة ، وامام نصوص عديدة من الرسائل نفسها تقول بان العدد واحد وخمسون ! فهل أخطأ اخوان الصفاء في عدّ ما الفوا من رسائل ، ام هل تصرف الناسخون فقسموا احدى الرسائل اثنتين ؟ ان الفرض الاول مستبعد ، وان بعضهم يظنون ان الرسالتين الثانية عشرة والثالثة عشرة من المنطق كانتا رسالة واحدة . وعليه نعتقد ان عدد الرسائل واحد وخمسون ، ثم الرسالة الجامعة . فلنتحدث عما في هذه الرسائل .

---

١) رسائل ٤ : ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٦
٢) رسائل ١ : ٢١٥، ٢٥٤، ٢٨٣
٢ : ١٣٠
٣ : ٣٧٩
٤ : ٧٢، ١٢٦، ٢٣٣

آ ــ طبعة الرسائل المصرية

قلنا ان هذه الطبعة تحوي اثنتين وخمسين رسالة ، مقسومة اربعة اقسام هي :

١) القسم الرياضي : ١٤ رسالة : في العــدد ، والهندسة ، والنجوم ، والجغرافيا ، والموسيقى ، والنسبة العددية والهندسية ، والصنائع العلمية ، والصنائع العملية ، والاخلاق ، والمنطق (الايساغوجي ، والمقولات العشر ، وبارمنياس ، وانولوطيقا الاولى ، وانولوطيقا الثانية) .

يمكن اعتبار النجوم درساً لعالم الاجسام كله ، فتصبح الجغرافيا جزءًا منه .

انما لسنا نرى لماذا ادخل اخوان الصفاء المنطق في الرياضيات ، ولا كيف ادخلوا فيها الصنائع والاخلاق .

٢) القسم الجسماني الطبيعي : ١٧ رسالة هي : الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان ــ السماء والعالم ــ الكون والفساد ــ الآثار العلوية ــ المعادن ــ الطبيعة ــ النبات ــ الحيوان ــ الجسد ــ الحاس والمحسوس ــ مسقط النطفة ــ الانسان عالم صغير ــ النفوس البشرية ــ طاقة الانسان في العلوم ــ حكمة الموت والحياة ــ اللذات ــ اختلاف اللغات والخطوط .

٣) القسم النفساني العقلي : ١٠ رسائل هي : مبادئ الموجودات العقلية على رأي الفيثاغوريين ــ المبادئ العقلية على رأي اخوان الصفاء ــ العالم انسان كبير ــ العقل والمعقول ــ الادوار والاكوار ــ العشق ــ البعث والقيامة ــ اجناس الحركات ــ العلل والمعلولات ــ الحدود .

٤) القسم الناموسي الالهي : ١١ رسالة هي : الآراء والديانات — ماهية الطريق الى الله — اعتقاد اخوان الصفاء — معاشرة اخوان الصفاء وتعاونهم — ماهية الايمان — ماهية الناموس الالهي وشرائط النبوة — كيفية الدعوة الى الله — كيفية احوال الروحانيين — انواع السياسات — كيفية نضد العالم باسره — السحر والعزائم والعين .

نرى من هذا التصميم ان اخوان الصفاء ما نهجوا طريق فلاسفة العرب الذين قسموا الفلسفة الى نظرية (منطق — رياضيات — طبيعيات — إلهيات) وعملية (سياسة اخلاقية — منزلية — مدنية) . بل انهم بحثوا في الايمان بنوع غير مألوف ، ومزجوا بين باقي الاقسام مزجاً ، وصبغوا الكل بصبغة زهد وتصوف ظاهرين .

ب — الرسالة الجامعة : دمشق ١٩٤٩ :

هذه الرسالة جزءان مطبوعان في اكثر من الف صفحة . في نحو ١٧٠ صفحة من اول الرسالة ، يتحدث اخوان الصفاء عن مواضيع شتى ، عن الله ، والعدد ، والقضاء والقدر ، وقصة آدم وحواء... ، ثم يأتون في باقي الرسالة على ذكر الرسائل الاثنتين والخمسين ، فيذكرون غاية كل رسالة ، وخلاصة موضوعها . وقد بدّلوا في ترتيب رسالتين : الرسالة في الموسيقى تأتي خامسة في الرسائل ، ورابعة في الرسالة الجامعة . والرسالة في عشرة اخوان الصفاء تأتي رابعة واربعين في الرسائل ، وثانية وخمسين ، اي اخيرة ، في الرسالة الجامعة.

اما صلة الرسالة الجامعة بباقي الرسائل فقد حددها اخوان الصفاء في اكثر من نص . حددوها ، في الرسائل ، فقالوا بان الرسالة

الجامعة ملخّص يُستغنى به عن باقي الرسائل ، حين يتعذر وجودها[1]. وحددوها ، في الرسالة الجامعة نفسها ، فوصفوها بانها الغرض الاقصى من الرسائل ، فيها بيّنوا بالبرهان ما شرحوه في الرسائل بطريق الاقناع ، وفيها باحوا بالاسرار ، وبها ضنوا على غير اهلها . على انهم يعترفون احياناً بانهم ما باحوا بكل سر ، ولا رفعوا كل حجاب[2].

وفي الواقع تبدو الرسالة الجامعة ملخصاً للرسائل ، ما باحوا فيها بغاياتهم القصوى ، ولا أطْلعوا على كل الخفايا ، وقلما تجد توسعاً في فكرة ، او توضيحاً لقضية . ان الرسالة الجامعة اهون شأناً بكثير مما كان يُعتقد .

•

والآن لنلقِ نظرة عامة على الرسائل ، فما نتبيّن فيها ؟

نتبيّن اولاً ضعفاً في التأليف : تقرأ مدخل الرسالة ، فاذا الموضوع محدّد واضح ، ثم تتابع القراءة فاذا مواضيع غريبة تتخلل وتتعدد .

ونتبيّن ثانياً سطحية في البحث : لا يتعمق اخوان الصفاء في ما يبحثون ، لا يتطرقون الى المسائل الدقيقة ، ولا يستقصون ، لان الجماعات التي يكتبون لها اعجز من ان تفهم العميق العسير .

ونتبيّن ثالثاً تعبيراً سهلاً غنياً ، قريباً من مفهوم العامة ، تكثر فيه الامثال والقصص ، ويغلب عليه الاسهاب . على ان اخوان الصفاء اكثروا من القصص الرمزي ، ومن الاشارات والكنايات ،

---

١) مختارات ص ٦٩

٢) الرسالة الجامعة : ١ : ص ١٢ ، ١٠٩—١١٠

واستعملوا احياناً الفاظاً مألوفة بغير معناها المألوف ، فغلب الغموض على رسائلهم رغم سهولة افكارها وتعبيرها .

ولعل ما أشرنا اليه من ضعف في التأليف والتفكير ، ومن غموض في البيان ، هو ما دفع ابا حيان التوحيدي الى ان يقول في الرسائل : « هي مبثوثة في كل فن ، بلا اشباع ولا كفاية ، وهي خرافات ، وكنايات ، وتلفيقات ، وتلزيقات » ، او ما دفع ابا سليمان المنطقي السجستاني الى هذا الحكم على اخوان الصفاء : « تعبوا وما اغنوا ، ونصبوا وما اجروا ، وحاموا وما وردوا ، وغنّوا وما اطربوا » .

وميزة اخيرة في الرسائل دعوة الى الزهد ، الى يقظة النفس من رقدة الجهالة ، والعمل على النجاة من بحر الهيولى ، مما يسبغ على كل الرسائل مسحة دينية صوفية ، ويجعل اخوان الصفاء يبحثون في كل ما يبحثون وهم يرمون الى هذه الغاية ، ويسعون الى كمال الروح .

ولنتدرج الآن فنعرض ما جاء في هذه الرسائل .

فلسفة اخوان الصفاء

لن نعرض لما جاء في رسائل اخوان الصفاء من علوم ، لا هم ابتكروها ، ولا هي اليوم جزءًا من الفلسفة .

ولن نتوقف على منطق اخوان الصفاء ، لانهم رددوا ما اخذ العرب عن القدماء ، فاستقوا من الايساغوجي لفرفوريوس ، واخذوا المقولات والعبارة والقياس والبرهان من منطق ارسطو ، ثم اوجزوا في كل ذلك وما جددوا .

ثم لسنا نتبع تقسيم اخوان الصفاء لعرض آرائهم ، بل نؤثر رد هذه الآراء الى بعض مواضيع جامعة ، وعرضها بشكل مذهب اقوى تماسكاً ، واوضح افكاراً .

واليك اهم هذه المواضيع :

١ — الله

الله موجود ، وبرهان وجوده ما نرى في هذا العالم من دقة الصنعة ، ومظاهر الحكمة ، وحسن العناية : « ان المصنوع المحكَم يدل على الصانع الحكيم . »[١]

١) رسائل ٢ : ١٣٠

تأملِ النبات ترَ ما فيه من فنون الاشكال والازهار والالوان ، ومن ضروب الاثمار والروائح والطعوم ، وتعلم علماً ضرورياً بان له صانعاً حكيماً[1].

وانظر الى الحيوان ترَ اختلاف اجناسه واشكاله واصواته ، وتره يعيش بعضه في الهواء ، وبعضه في الماء ، وبعضه في القفار والكهوف ، فتعجب مما ترى وتسبّح عظمة الباري الرحيم[2].

وان الارض بكل ما عليها كنقطة في دائرة الفلك الرحيب . اصغر كوكب مثل الارض ثماني عشرة مرة ، واكبر كوكب مثلها مائة وسبع مرات ، وسعة الافلاك وبعدها تريها للعين «كأنها الدر المنثور على بساط اخضر .»[3] وكل ذلك دليل على حكمة الصانع ، وجلالة عظمته .

والله قد نظّم هذا العالم احكم تنظيم واتقنه ، فدبّر كل موجود كما يليق به ، ورتبه في مكانه حسب استعداده ، وكأنه كله انسان واحد او حيوان واحد ، يعلم الله كل ما يجري بين اضلاعه[4].

٢ — الفيض

اثبت اخوان الصفاء وجود الله كصانع حكيم لهذا العالم .

ولكن متى صنع الله هذا العالم ؟ ولِمَ اوجده ؟ وكيف صنعه ورتبه ؟ والى متى يحفظه في الوجود ؟

هذه اسئلة لا يتعرض لها اخوان الصفاء دفعة واحدة ، ولا

---

١) رسائل ٢ : ١٣٠ .
٢) رسائل ٢ : ٢٣٢
٣) رسائل ١ : ١١٧
٤) رسائل ٣ : ٩٠

يجيبون عنها بترتيب ودقة ، انما ترد في رسائلهم هنا وهناك ، كما ترد اكثر آرائهم . وانّا نحاول الآن استعراضها في نظرة واحدة ، والجواب عنها .

حدوث العالم :

قال الفارابي وابن سينا بعالم قديم ، لا اول لزمان وجوده ، واعطيا على ذلك براهين . اما اخوان الصفاء فقالوا بعالم « محدَث ، مبدع ، مخترع ، كائن بعد ان لم يكن » ، ابدعه الله كما شاء ، وكيف شاء ، بقوله له : كن! فكان[1] ، وما اعطوا على ذلك برهاناً ، او اتوا بتفنيد .

حرية الخلق :

ولما كان ابداع العالم بمشيئة الله ، فهذا الابداع فعل حر . واخوان الصفاء قد اثبتوا هذه الحرية ، بل شددوا على القول بها : « اما الباري تعالى فمختار في فعله ، ان شاء فعل ، وان شاء امسك عن الفعل تركاً ، مثل المتكلم القادر على الكلام ، ان شاء تكلّم وان شاء امسك وسكَت . وهكذا حكم ايجاد الباري تعالى واختراعه ، ان شاء افاض جوده وفضله ... وان شاء امسك . »[2]

ولسنا نستغرب ان يقول اخوان الصفاء بحرية الخلق ، انقياداً للحق ، واقتداءً بمن قالوا بحدوث العالم مثلهم ، انما نستغرب ان نجد في نصوص اخرى ما يقضي على هذه الحرية . تساءل اخوان الصفاء لمَ خلق الله العالم ، فاجابوا بما معناه : على الحكيم ان يفعل الحكمة والا كان سفيهاً ، وخلق الله للعالم حكمة . اذاً بواجب الحكمة خلق

---

١) رسائل ٢ : ٧٦
٢) رسائل ٣ : ٣١٩

الله العالم[1] .هذا البرهان يعود بنا الى القول بضرورة الخلق ، كما قال الفارابي وابن سينا ، وانه لبرهان فاسد. ذاك ان الحكيم — اذا عمل — عمل ، بمقتضى الحكمة ، انما ليس عليه ان يعمل كل ما هو حكمة ، ولا يمكنه ذلك : ان عمل كل ما هو حكمة ايجاد لعدد من الكائنات لا نهاية له !

كيفية الخلق : الفيض :

ونصل الى كيفية صدور العالم عن الله .

ان اخوان الصفاء جروا في ذلك على آثار الفارابي وابن سينا ، فقالوا بفيض العالم عن الله ، واضعين بين الله والمادة وسطاء ، مفصّلين موجودات العالم وعلاقاتها المتبادلة .

وكان الفارابي وابن سينا قد اقتبسا نظرية الفيض هذه عن افلوطين ، فادخلا عليها تبديلاً في التفاصيل ، وركّزاها على مبادئ عقلية . اما اخوان الصفاء فما استندوا الى مبادئ ، ولا أدخلوا كبير تبديل .

واليك خلاصة نظريتهم :

بواجب الحكمة فاض من الله العقل الفعال — وهذا عقل روحاني ، فائق الكمال ، حاوٍ على جميع الموجودات ، كما يحوي فكرُ العالِم صور المعلومات .

من العقل الفعال فاض عقل منفعل او النفس الكلية — وهذه روح بسيط ، قابل من العقل الفعال صور الموجودات ، كما يقبل التلميذ تعليم استاذه .

---

١) رسائل ٣ : ١٨٧ ، ٢٣٩
٤ : ١٠

من النفس الكلية فاضت جوهرة بسيطة روحانية تقبل على التدريج ما في النفس من صور : هي الهيولى الاولى .

واول صورة فاضت من النفس الكلية على الهيولى الاولى هي الطول والعرض والعمق ، فكانت الهيولى الثانية او الجسم المطلق . ووقف الفيض عند الجسم المطلق ، لغلاظة جوهره ، وبعده عن العلة الأولى .

ثم عطفت النفس الكلية على الجسم المطلق فاعطته الشكل
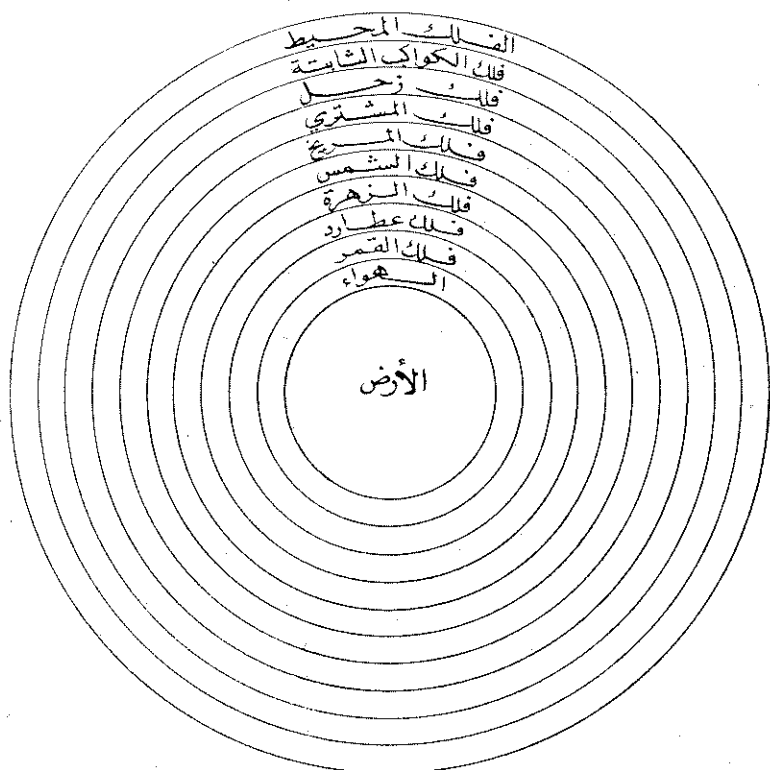
الكري — افضلَ الاشكال — ، وحركته بالحركة الدورية — افضل الحركات — ، فتكون من ذلك العالمُ الجسماني احدى عشرة كرة

بعضها في جوف بعض وهي : الفلك المحيط ، وفلك الكواكب الثابتة ، وفلك زحـــل ، وفلك المشتري ، وفلك المريخ ، وفلك الشمس ، وفلك الزهرة ، وفلك عطارد ، وفلك القمر ، ثم كرة النار والهواء ، وكرة الماء والارض .

زحل والمشتري والمريخ والشمس والزهرة وعطارد والقمر سبعة كواكب سيّارة ، اما باقي الكواكب فثابتة ، وقد ادرك الرصد منها ١٠٢٢ .

لكل كوكب سيّار فلك يخصه ، وللكواكب الثابتة فلك واحد.

الافلاك اجسام كروية شفافة مجوّفة . الفلك المحيط هو العرش الاعظم ، وفلك الكواكب الثابتة هو الكرسي الذي وسع السماوات والارض ، والافلاك السبعة الباقية هي السماوات السبع .

تكون ما تحت القمر من عناصر اربعة ، الهواء والنار والتراب والماء . واختلطت هذه العناصر بعضها ببعض فكانت المولدات : المعادن والنبات والحيوان .

العالم الجسماني كله كجسم واحد تجري فيه النفس الكلية الواحدة، ولهذا وصف بانه انسان كبير .

وهذا العالم الجسماني صدر عن مبادئ اربعة — الله ، والعقل الفعال ، والنفس الكلية ، والهيولى الاولى — كما ان العدد كله تفرع عن اربعة اعداد : ١+٢+٣+٤=١٠ .

فناء العالم :

ولكن حتامَ يدوم هذا العالم ؟

ان خراب العالم رهن ببلوغ الغاية التي من اجلها وجد . لا يأتي حكيم عملاً ، الا اذا كان له في ذلك غرض ، وتيقن من بلوغ

غرضه . ثم اذا هو ادرك ما اراد توقف عن العمل . وهكذا حين يبلغ الله غرضه من ايجاده العالم وتحريكه له ، يمسك عن العمل ، وترجع النفس الكلية الى عالمها ، ويعم الخراب والبوار . ويسمي اخوان الصفاء خراب العالم القيامة الكبرى .

ه

تستند نظرية الفيض هذه الى علم ناقص ، هو علم عصر اخوان الصفاء .

وتراجع هذه النظرية نظرية افلوطين في الفيض ، مع تبديل يسير .

ويتأثر اخوان الصفاء بالفيثاغورية فيقابلون بين مبادئ الوجود ومبادئ الاعداد .

ولا يفهم اخوان الصفاء نظرية ارسطو في الهيولى والصورة ، فيجعلون من الهيولى الاولى — مبدأ الجسم المطلق — روحاً ، كما قد يحددون الهيولى والصورة تحديداً كهذا : الهيولى هي الجسم، والصورة هي الطول والعرض والعمق !

٣ — الانسان

اننا بعد ان قرأنا رسائل اخوان الصفاء ، ورتبنا ما جمعنا من نصوص وجدنا أنفسنا ، لدى اكثر من مسألة، امام ظاهرتين غريبتين .

الاولى ورود نصوص متناقضة . بعضها يردد ماعلّم الاسلام ، والبعض يعلم تعاليم مباينة له .

والثانية استعمال ألفاظ مألوفة بمعانٍ لا عهد لنا بها ، بمعان رمزية غامضة او غريبة .

وما الظاهرتان ، في نظرنا ، سوى نوع من التمويه والتضليل ، من دسّ آراء شاذّة خلال عقائد موروثة ، ومن استعمال كلمات شرعية بمعانٍ وتأويل غريبة . ومن البداهة ان الرأي الشاذ عقيدتهم ، وان العبرة في معنى الالفاظ ، لا في استعمالها .

وعليه ما كان رأيهم في الانسان ، في علاقته بالكون ، وفي طبيعته ومآله ؟

الانسان عالم صغير :

لقد قارن اخوان الصفاء بين العالم والانسان ، فقالوا ان العالم انسان كبير ، وان الانسان عالم صغير . العـــالم جسم واحد ، كثير الاجزاء والاعضاء ، تحييـــه نفس كلية واحدة[1] ، والانسان جزء من هذا الجسم العالمي ، وشعاع من هذه النفس الكلية : « اعلم يا اخي ، ان نفسك هي احدى النفوس الجزئية ، وهي قوة من قوى النفس الكلية ... لا هي بعينها ولا منفصلة منها ، كما ان جسدك جزء من اجزاء جسم العالم ، لا هو كله ولا منفصل منه »[2].

قوى النفس ومعرفتها :

والنفس البشرية ثلاث : نباتية تسكن الكبد ، وحيوانية تسكن القلب ، وناطقة تسكن الدماغ ، وهذه النفوس الثلاث ليست « متفرقات متباينات بعضها من بعض ، ولكنها كلها كالفروع من اصل واحد ، متصلات بذات واحدة كاتصال ثلاثة اغصان من شجرة واحدة »[3] .

---

١) رسائل ١ : ٢٢٤
٢) رسائل ٢ : ١١١
٣) رسائل ٢ : ٣٢٥

النفس واحدة ، انما تعددت الاسماء لتباين الافعال : ان فعلت في الجسم الغذاء والنمو سميت نباتية ، وان فعلت فيه الحس والحركة سميت حيوانية، وان فعلت الفكر والتمييز سميت ناطقة[1].

وقد ترقى هـــذه النفس الناطقة ، فتصبح نفساً ملكية في الفيلسوف ، ونفساً قدسية في النبي .

اما قوى المعرفة فهي :

١ ـ **الحواس الخمس** : فيها تنطبع رسوم المحسوسات .

٢ ـ **المتخيلة** : تتناول رسوم المحسوسات ، وتجمعها ، وتؤديها الى المفكّرة .

٣ ـ **المفكّرة** : تميز بعض الرسوم عن بعض « وتعرف الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، والنافع من الضارّ ، ثم تؤديها الى القوة الحافظة »[2] .

٤ ـ **الحافظة** : تحفظ رسوم المحسوسات الى وقت الحاجــة والتذكار .

٥ ـ **الناطقة** : تتناول الرسوم المحفوظة ، وتنتزع منها جميــع المعاني ، ثم تعبر عنها باللسان .[3]

لا يشرح اخوان الصفاء كيف تنتزع القوة الناطقة المعاني من الرسوم ، اي لا يشرحون كيفية الانتقال من المعرفة الحسية الى المعرفة العقلية ، وهو سرّ المعرفة البشرية . ثم لا نرى بوضوح الفرق بين المفكرة والناطقة .

١) رسائل ٢ : ٣٢٦
٢) الرسالة الجامعة : ١ : ٦٠٥
٣) الرسالة الجامعة : ١ : ٥٠٧، ٦٠٢، ٦٠٥

مجرى المتخيلة مقدم الدماغ ، ومجرى المفكرة وسطه ، ومجرى الحافظة مؤخره ، ومجرى الناطقة في الحلقوم الى اللسان[١].

حرية الانسان :

يتحدث اخوان الصفاء عن القضاء والقدر ، فيحددونهما هكذا :

القدر هو وضع الشيء في موضعه اللائق به ، والقضاء هو تكليف المخلوقات في ان تكون في المواضع المعيّنة لها . فمن عدل عما هيئ له ، وخرج عن قضاء الله ، استوجب العقاب .

والانسان قادر على الخروج عن قضاء الله ، وفي هذا الخروج الشر . ليس الشر من فعل الله ، كما يقول اهل الجبر ، وليس من فاعل خالق مضادّ لله ، كما تقول الثنوية[٢] .

خلود النفس :

النفس البشرية روحانية خالدة ، وقد اعطى اخوان الصفاء على ذلك برهانين :

البرهان الاول قائم على معرفة النفس : الانسان يسمع ويفهم ، ويعي من العلم فنوناً . ولا يمكن ان يكون هذا فعل الجسد المحسوس ، المركب من لحم ودم . اذًا هو فعل نفس روحية تسكن الجسد .

اما البرهان الثاني فيستند الى شهوة النفس . تشتهي النفس الخلود ، فهي خالدة : « ان الطبيعة لم تفعل شيئاً باطلاً ... فشهوة النفس البقاء ابدًا ، وكراهيتها الفناء ، ليست الا بحكمة ما . فلو

---

١) الرسالة الجامعة : ١ : ٥٠٧، ٦٩٣
رسائل : ٢ : ٣٢٨-٣٢٩ . ٣: ٣٣٦-٣٣٩
٢) مختارات : ص ٧٣-٧٤

لم يكن للنفوس بقاء بعد مفارقة الاجساد ، لكان وجود هذه الشهوة في جبلتها ، وكراهية الفناء في طباعها ، باطلاً ، لان البقاء في الدنيا ابداً ليس بموجود لشخص من الاشخاص الحيوانية البتة . فاذاً البقاء بعد الفناء . »[1]

معاد الانسان :

واذا كانت النفس خالدة ، فما مصيرها بعد الموت ؟ وما مصير جسدها ؟

ان اخوان الصفاء يعبثون هنـــا بالالفاظ عبثاً كبيراً . انهم يستعملون لفظ الجنة وجهنم ، والبعث والمعاد ، والملاك والشيطان ، الى ما هنالك من كلمات قرآنية مألوفة ، انما يفسدون معانيها افساداً . فالجنة ، مثلاً ، هي عالم الارواح ، وجهنم هي عالم الاجسام ، والبعث هو انتباه النفس من نوم الغفلة بمفارقتها الجسد ، والمعاد هو رجوع النفوس الجزئية الى النفس الكلية واتحاد بعضها ببعض كما تتحد اصوات اوتار مختلفة[2] ، والملائكة هم نفوس الاخيار بعد الموت ، والشياطين هم نفوس الاشرار . والذي يمكن استخلاصه من اقوالهم هو هذا :

١) النفوس الصالحة تفارق اجسادها ، وتعيش في عالم الافلاك ملائكة هانئين. ولن تعود هذه النفوس الى اجسادها ، لان عودتها اليها عودة الى الشقاء والعذاب[3] .

---

١) رسائل ٤ : ٥٧
٢) رسائل ٣ : ٣٦٥، ٣٧٠–٣٧١
٣) رسائل ٣ : ٩٤، ٢٨٨–٢٨٩
رسائل ٤ : ٢٦٥، ٢١٢–٢١٤

٢) النفوس الشريرة تظل في عالم الارض ، دون فلك القمر . تشتهي العودة الى اجسادها لتنعم بسابق لذاتها ، ولا تستطيع ، فتهيم تائهة معذبة . وهذه النفوس هي الشياطين توسوس للناس بالشر ، كما ان الملائكة — نفوس الاخيار — تلهم الى الخير . ويزعم اخوان الصفاء ان النفوس الشريرة تتعلق باجساد حيوانات ، لتتألم وتتوجع ، حتى اذا ما طهرها هذا الالم اصبحت نفوساً انسانية[١] . وهذا يعني ان الشقاء الى زمن ، وان الكل في النهاية الى نجاة : أما قالوا بان العالم الجسماني الى خراب ، وان المعاد هو عودة النفوس الجزئية الى النفس الكلية ؟

٣) اما ما حوى القرآن في الجنة من اوصاف جسمانية ، فغايته التقريب الى افهام العامة سيما وقد خاطب بدوا اميين . اما المسيح فقد صارح الحواريين — وقد هذبتهم التوراة وكتب الحكماء — بان الجنة لذة روحانية خالصة[٢] . ويفترض هذا الرأي نظرية عامة في القرآن تجعل منه كتاب رموز واشارات ، وتمهد لاخوان الصفاء سبيل التأويل ، وتحويل عقائد الاسلام الى ما شاؤوا من الاراء .

٤ — الاخلاق

في رسائل اخوان الصفاء مسحة اخلاقية صوفية لا تكاد تخلو منها رسالة . وهم منذ الصفحة الاولى من رسائلهم قد نبهوا الى هذه الغاية ، فقالوا فيها : « هي اثنتان وخمسون رسالة في فنون العلم ، وغرائب الحكم ، وطرائف الأداب ، وحقائق المعاني ، عن كلام الخلصاء الصوفية ، صان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد . »[٣]

---

١) رسائل ٣ : ٧٨
٢) رسائل ٣ : ٩٠—٩٢
٣) رسائل ١ : ١

ويرى اخوان الصفاء ان الاخلاق تتأثر بعوامل عديدة :

العامل الاول هو البقعة التي يعيش فيها الانسان . ان هواء البقعة وترابها يؤثران في المزاج ، واختلاف الامزجة « يؤدي الى اختلاف اخلاق اهلها وطباعهم والوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم واعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم »[1].

العامل الثاني هو النجوم ، فان الطباع تختلف باختلاف البروج التي يولدون فيها . وهذا الرأي هو رأي القدماء عامة في تأثير النجوم على حياة الناس .

العامل الثالث هو التربية ، وبنوع عام الاشخاص الذين تعايشهم وتعاشرهم من اهل ومعلمين واصدقاء .

العامل الرابع هو المذهب الذي ينشأ عليه الانسان ، ويتأثر بروحه وتعاليمه ، فيصبح ذلك له خلقاً وسجية[2] .

اما بحث اخوان الصفاء في الاخلاق فليس بحثاً منظماً ، متعمقاً ، بل هناك نصح كثير يتخلل الرسائل ، وآراء منثورة خلال ما بحثوا من مواضيع .

واذا اردنا تنظيم ما جمعنا من آرائهم ، فيمكن ردّ هذه الآراء الى ما يلي :

١ – اعمل الخير لأنه خير : لا تعمل خوفاً من عقاب ، او طمعاً في ثواب ، ولا تعمل حتى من اجل الذكر والاسم . اعمل

---

١) مختارات ص ٧٧

٢) رسائل ١ : ٢٣٤، ٢٣٦–٢٣٧

الخير ، لأنه خير ، وإن تعمل لدافع آخر – لخوف او مكافأة او مجد – فانت منافق ، والمنافق « لا يستأهل ان يكون في جوار الروحانيين . »[1]

٢ – ازهد في الدنيا : ازهد في المال ، وفي المأكل والمشرب ، وتجنّب الكبر والاعتداد بالرأي .

٣ – ارد للغير ما تريده لنفسك : لا تحسد أحداً ، وارحم كلّ انسان ، بل « تحنّن على كل ذي روح من الحيوان . »[2]

٤ – اخلص للصديق : الصديق المخلص نادر ، فابحث عنه ، وانتقده انتقادك الدرهم ، ثم تشبّث به ، واخلص له .

٦ – سياسة البيت : استغنِ عن الزواج ، ان استطعت ، وان تتزوج ، فاكثر من تفقد زوجك ، لأن المرأة سريعة التلوّن ، سهلة الاستفساد .

اما اهل بيتك فسسهم سياسة واحدة لا تحيد عنها ، لكي يتقيدوا بسلوكٍ واحد ثابت ، ولا تظهر فاقةً لحواشيك فذلك ذلّ لك .

---

١) مختارات : ص ٨٤

٢) هو اعتقادهم بتناسخ النفوس في حيوانات قد يكون جرهم الى هذا الرأي .

حكم عام

كان عصر اخوان الصفاء عصر تنوّع ، وتصدّع ، وصراع .

تعددت العصبيات ، فتنوعت العقول والامزجة ، وتحزّب كل شعب لابناء جنسه .

وتعددت الاديان ، ونشأت في كل دين مذاهب ، فانتصر كل موْمن لدينه ومذهبه .

وتفككت المملكة الاسلامية ، فتنافر الامراء ، وكثر الطموح ، ذهبت قوة الامة ، وطمع فيها الطامعون .

والتقت ثقافات الأمم المتباينة ، فتنافرت وتفاعلت ، ونشأت ألوان من الفكر ، وضروب من الآراء .

في هذا الجو من التفكّك والتصدع والصراع ، كان من الطبيعي ان ينزع اخوان الصفاء — وهم غواة اصلاح عام — الى تحقيق وحدة شاملة ، وبناء محبوك متين .

وفكرة الوحدة هذه تظهر شائعة في كل آرائهم ، ناتئة في كل نزعاتهم .

الله واحد — كما ان اصل العدد واحد — عنه صدر كل شيء ، وبه يتعلق كل كائن .

النفس الكلية واحدة ، عنها فاض كل ما في الجماد من قوى ، وكل ما في الحيّ من نفوس ، واليها تعود كل قوة وكل نفس ، يوم تبور المادة .

العالم واحد ، كثير الاعضاء متماسكها ، كأنه حيوان واحد .

البشرية واحدة ، مهما تنوعت شعوبها ، واختلفت طباعها وألوانها .

الدين واحد ، رغم تعدد الشرائع ، وتباين المذاهب . وعلى الناس اذاً ان يعملوا بوصية ذاك الملك الهندي المسلم الى علماء رعيته: « اياكم والخلاف والنفاق والعداوة والمنازعة والمجادلة في اديانكم وآرائكم ومذاهبكم ، فان في ترك ذلك صلاحاً لكم ولانفسكم وجمع شملكم ، ودعة لقلوبكم ، ودفاعاً عن بلادكم ، ولا يطمع فيكم عدوكم . »[١]

الحقيقة واحدة ، مهما تباينت آراء الفلاسفة ، وتضاربت نظريات العلماء. وان الحكيم الذي لا يحصر الحق على واحد ، بل يبحث عنه انّى وجده : ليست الحقيقة ملك فيلسوف او إمام ، بل هي ملك البشرية جمعاء ، تتبادل ما اكتشفته منها ، وتجدّ في البحث عن الباقي المجهول .

الدين والفلسفة واحد ، لان غرض جميع الانبياء والفلاسفة واحد، هو نجاة النفوس.[٢]

ما نبذ اخوان الصفاء شيئاً من مجتمعهم العباسي ، بل رأوا ان يجنوا كل حقّ فيه ، وكل خير ، وكل خلق سليم ، وان يغذّوا اخوانهم من ذاك الجنى المتنوع الغني ، واقصى ما يبغون ان يصبح كل واحد منهم مثل ذاك العالم الفاضل « الفارسي النسبة ، العربي

---

١) رسائل ٣ : ١٨٠–١٨١

٢) ان الافلاطونية المستحدثة مزجت بين الدين والفلسفة ، وحاولت بينهما وفاقاً . وقد يكون اخوان الصفاء اكثر فلاسفة العرب تأثراً بهذا التراث الاسكندري .

الدين، ... العراقي الآداب، العبراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النسك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير.»[1]

•

وان هذا النص الاخير يطلعنا على مظهر ثانٍ مكمّل لفكرتهم، هو التفاوت.

اراد اخوان الصفاء الوحدة، انما ما قالوا بالمساواة. ان الوحدة التي ينشدونها تفترض تفاوتاً، وتفترض تنظيماً. هي كوحدة الكون تتدرج من المادة الى الله، او كوحدة الانسان المتفاوت الاعضاء والقوى.

الجماعات البشرية تتفاوت، لهذا تعددت الشرائع، وتفاوتت في الكمال.

الافراد في الجماعة متفاوتون ذكاءً واخلاقاً، لهذا كان للشرع ظاهر وباطن، ولهذا ايضاً اختار اخوان الصفاء اخوانهم اختياراً، ودرّجوهم في العلوم تدريجاً.

•

ان جماعة اخوان الصفاء كانت تبدو لهم المثال الاعلى لمجتمعهم العباسي، بل للبشرية جمعاء.

حوت جماعتهم من كل طبقات الناس، وكل اجناس الناس، من كل الاديان والمذاهب، ومن كل العلوم والآراء. وقد التأمت كل هذه العناصر المتباينة المتفاوتة في وحدة شاملة تتدرج من الادنى الى الاعلى، وتخضع لنظام دقيق. وكانت تشد اواصر الجماعة محبة لا يشوبها بغض، ونزوع الى الخير واحد.

ما قالوا بالمساواة، ولا رضوا عن العداء والنزاع، بل رأوا ان

---

١) رسائل : ٢ : ٣١٦

يلزم كل فرد حدّه ، وان يقدّم كل شخص خير ما عنده ، وان يتضافر الكل على بناء بشري امثل .

•

في فكرة اخوان الصفاء رحابة نظر ، وبعد مدى ، وفيها مثالية قد تجوز الطاقة .

وانهم إن حققوا شيئاً منها في جماعتهم الخاصة، فهم ما استطاعوا فرضها على مجتمعهم ، ولا استطاعوا البقاء .

ما بلغت جماعة اخوان الصفاء كل ما اشتهت من اصلاح ، ما تولت الحكم ولا نهضت بالاخلاق الى حيث رمت ، انما خلّفت لنا فكرة خليقة بالتقدير ، خليقة بان نقف عليها ، وان نجد فيها نفعاً .

ومتى ضار الفكرة ان يحجم عنها الناس ، او ان يعجزوا ؟

مختارات

الاخ الوفي

ينبغي لاخواننا ، ايدهم الله ، حيث كانوا في البلاد ، اذا اراد احدهم ان يتخذ صديقاً مجدداً ، او اخاً مستأنفاً ، ان يعتبر احواله ، ويتعرف اخباره ، ويجرّب اخلاقه ، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ، ليعلم هل يصلح للصداقة وصفاء المودة وحقيقة الاخوّة ام لا ، لأن في الناس اقواماً طبائعهم متغايرة ... : فمنهم خيّر وشرير ، وكفور وشكور ، وذو امانة وغدّار ، وحليم وسفيه ، وسخي وبخيل ، وشجاع وجبان ، وحسود وودود ، وفاجر وعفيف ، وجزوع وصبور ، وشره وقنوع ، وسلس وشرس ، وفظ غليظ ولطيف رقيق ، وعاقل واحمق ، وعالم وجاهل ، ومحب ومبغض ، وموافق ومخالف ، ومنافق ومخلص ، وناصح وغاش ، ومتكبر ومتواضع ، وعدو وصديق ، ومؤمن وزنديق ، وعارف ومنكر ، ومقبل ومدبر ، وما شاكل هذه الاخلاق المحمودة والمذمومة ، مضادات بعضها لبعض ...

واعلم ان اخوان الصدق هم الاعوان على امور الدين والدنيا جميعاً ، وهم اعز من الكبريت الاحمر . واذا وجدت منهم واحداً

فتمسك به ، فانه قرة العين ، ونعيم الدنيا ، وسعادة الآخرة ، لان اخوان الصدق نصرة على دفع الاعداء ، وزين عند الاخلاء ، واركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى ، وظهر يُستند اليهم عند المكاره في السرّاء والضرّاء ، وكنز مذخور ليوم الحاجة ، وجناح خافض عند المهات ، وسلم للصعود الى المعالي ، ووسيلة الى القلوب عند طلب الشفاعات ، وحصن حصين يلتجأ اليه يوم الروع والفزعات . فان غبت حفظوك ، وان تضعضعت عضدوك ، وان رأوا عدواً لك قمعوه . والواحد منهم كالشجرة المباركة تدلت اغصانها اليك بثمرها ، واظلتك اوراقها بطيب رائحتها ، ، وسترتك بجميل فيئها ، فان ذُكرت اعانك ، وان نُسيت ذكرك ، يأمرك بالبر ويسابقك اليه ، ويرغّبك في الخير ويبادرك اليه ، ويدلك عليه ويبذل ماله ونفسه دونك .

فاذا اسعدك الله ، يا اخي ، بمن هذه صفته ، فابذل له نفسك ومالك وقِ عرضه بعرضك ، وافرش له جناحك ، واودعه سرك ، وشاوره في امرك ، وداوِ برؤيته عينك ، واجعل أُنسك ، اذا غاب عنك ، ذكره والفكر فيه ، وان هفا هفوة فاغفر له ، وان زلّ زلة فصغّرها عنده ولا توحشه فيخاف من حقدك ، واذكر من سالف احسانه ، عند اساءته ، ليأنس بك ، ويأمن غائلتك ، فان ذلك اسلم لوده ، وادوم لاخائه .

واعلم ، يا اخي ، ان من الناس من لا يصلح للصداقة والاخوة والمقاربة اصلاً البتة ، فانظر من تصحب وتعاشر... فاذا رأيت الرجل معجباً صلفاً ، او نكداً لجوجاً ، او فظاً غليظاً ، او مماحكاً ممارياً ، او حسوداً حقوداً ، او منافقاً مرائياً ، او بخيلاً شحيحاً ، او جباناً

مهيناً ، او مكاراً غدّاراً ، او متكبراً جباراً ، او حريصاً شرهاً ، او كان محباً للمدح والثناء اكثر مما يستحق ، او كان مزرياً لنظرائه ، او كان مستحقراً لاقرانه والناس ، ذاماً لهم ، او متكلاً على حوله وقوته ، فاعلم انه لا يصلح للصداقة وصفوة الاخوة ...

واعلم ، يا اخي ، ان الانسان كثير التلوّن ، قليل الثبات على حال واحد ، وذلك انه قلّ من الناس من تحدث له حال من احوال الدنيا او امر من امورها ، من غنى الى فقر ، او من فقر الى غنى ، او من حضر الى سفر ، او من عزوبة الى تزويج ، او من ذُل الى عز ، او من عطلة الى شغل ، او من بؤس الى نعمة ، او من رفعة الى ضعة ، او من ضعة الى رفعة ، او من صناعة الى تجارة او من صحبة قوم الى صحبة آخرين ، او من رأي مذهب الى مذهب ، او من شباب الى شيخوخة ، او من صحة الى مرض ، الا ويحدث له خلق جديد ، وسجية اخرى ، ويتغير خلقه مع اخوانه ، ويتلون مع اصدقائه ، الا اخوان الصفاء الذين ليست صداقتهم خارجة من ذاتهم ، وذلك ان كل صداقة تكون لسبب ما ، فاذا انقطع ذلك السبب بطلت الصداقة الا صداقة اخوان الصفاء، فان صداقتهم قرابة رحم ، ورحمهم ان يعيش بعضهم لبعض ، ويرث بعضهم بعضاً، وذلك انهم يرون ويعتقدون انهم نفس واحدة في اجساد متفرقة فكيفما تغيرت حال الاجساد بحقيقتها ، فالنفس لا تتغير ولا تتبدّل، كما قال القائل :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ولو ان ما في الوجه منها خراب[1]

١) هذا البيت للمتنبي ، من قصيدة له في كافور ، قالها سنة ٣٤٩ هـ.

وخصلة اخرى ان احدهم اذا احسن الى اخيه احساناً ، فلا يمنّ عليه به ، لانه يرى ويعتقد ان احسانه الى نفسه ، وان اساء اليه اخوه لم يستوحش منه ، لانه يرى ان ذلك كان منه اليه . فمن اعتقد في اخيه مثل هذا ، واعتقد اخوه فيه مثل ذلك ، فقد امن كل واحد من اخيه غائلته ان يتغير عليه في يوم من الايام ، بسبب من الاسباب ، او بوجه من الوجوه .

فينبغي اذا ظفرت بواحد منهم ان تختاره على جميع اصدقائك واقربائك وعشيرتك وجيرانك الذين نشأت معهم ، فانه خير لك من ولدك الذي هو من ظهرك ، واخيك من صلب ابيك ، ومن زوجتك التي جعلتَ كل كسبك لها وجميع سعيك من اجلها . فاعرف حقه كما تعرف حقوقهم ، بل ينبغي ان توثره عليهم كلهم ، لان هؤلاء يحبونك من اجل منفعة تصل منك اليهم ، ويريدونك من اجل مضرة تدفعها عنهم ، فاذا استغنوا عنك زهدوا فيك ، ورغبوا في غيرك ، وخذلوك احوج ما تكون اليهم . فاما هذا الاخ فليس يريدك من اجل شيء خارج عن ذلك ، بل من اجل انه يرى ويعتقد انك اياه وهو اياك نفس واحدة في جسدين متقابلين ، يسره ما يسرك ، ويغمه ما يغمك ، ويريد لك منه مثل الذي تريد له منك .

واعلم ان قلوب الاخيار صافية ... ولا تخفى عليهم خفيات الامور ... فلا تضمر لاخوانك الاصفياء خلاف ما تظهر لهم ، فان ذلك لا يخفى عليهم ، ولا يتكتم عليهم منك .

(٤ : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢)

تعاون الاخوان

ذكروا ان قوماً من الغواصين ذهبوا الى جزيرة يستخرجون اللؤلؤ، فصحبهم رجل خبّ[1] ليحتال عليهم، فيفوز ببعض ما يستخرجون. فلما بلغوا ما ارادوا، وانصرفوا راجعين لم يظفر الرجل بشيء مما اراد غير ما وهبوا له من صغار اللؤلؤ لخدمته لهم.

ثم انه خرج عليهم القطّاع في طريقهم. فلما رآهم الغواصون، بلع كل منهم ما كان معه من ذلك الجوهر الثمين شفقة من اخذه. ولم يكن مع الخب شيء يشفق من اخذه، فلم يبلع هو شيئاً. فلما اخذهم القطّاع، فتشوهم، فلم يجدوا معهم شيئاً غير صغار اللؤلؤ، فقالوا لهم: اين خبأتم الكبار؟ فقالوا: لم نجد غير هذا. فقالوا: بل بلعتموها! فلنشقنّ اجوافكم. فحبسوهم تلك الليلة، وعزموا على شق اجوافهم.

فجعل الغواصون يفكرون طول الليلة. ففكر الرجل الخب في نفسه — وكان رجلاً عاقلاً — فخلا بهم، وقال لهم: اني اخبركم باني ما صحبتكم الا لكذا وكذا، فلم اظفر بشيء مما اردت. وقد علمت بانه ما من احد منكم الا وقد بلع شيئاً غيري. ولئن شقّ جوف واحد فوجد فيه شيء، لنهلكن باجمعنا. وقد رأيت من الرأي ان افديكم بنفسي، فلعلكم تسلمون، وهو ان اقول لهم: ان كان لا بد فشقوا جوف واحد، فان وجدتم شيئاً فرأيكم بالباقين، وان لم تجدوا شيئاً فاعلموا انّا صادقون، ولكن امهلونا لنقترع بيننا، فمن خرجت قرعته فدونكم ما تريدون. فان اجابوا الى ذلك،

---

١) خدّاع.

احتلت انا حتى تخرج قرعتي . وان تلفت نفسي ، وسلمتم ، فأسألكم ان تحسنوا الى ذرّيتي وتواسوهم مما معكم ، اذا سلمتم ان شاء الله تعالى . ففُعل به ذلك ، فلم يوجد في جوفه شيء وسلم القوم ...

فهكذا رأي اخواننا الفضلاء الكرام في معاونة بعضهم بعضاً لنصرة الدين ، وطلب المعاش ، اذا علموا ان في تلف اجسادهم صلاحاً لاخوانهم في امر الدين والدنيا ، سمحت انفسهم بتلف اجسادهم .

(٤ : ٨٧-٨٩)

عشرة اخوان الصفاء وخلان الوفاء

اعلم ، يا اخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، ان الذي يجب علينا ان نوصيك به ، ونلقيه اليك ، ونبلغك اياه ، ونعتمد فيه عليك من مراعاة اخوانك ، ومن قبلك من اصحابك ، ومن استجاب اليك ويستجيب ان شاء الله ، ان تجعل لهم مجلساً تجمع فيه جماعاتهم في كل اثني عشر يوماً يوماً واحداً ، يجتمعون فيه حيث ما اتفق لهم من مواضعهم وامكنتهم ، بحيث يأمنون فيه على انفسهم . ويكون اجتماعهم على تقوى من الله ، عزّ وجلّ ، وخيفة ، ومراقبة . ويتطهرون قبل حضورهم ، ويتنظفون ، ويأخذون زينتهم باحسن ما يقدرون عليه .

فاذا اجتمعوا بحيث تراهم ، وتعاينهم ، ولا تفقد احداً منهم الا لعذر يمنعه من القدوم عليك ، والوصول اليك ، فابرز لهم واخرج عليهم في زيك ، وحالك ، وجميل هيئتك ، وجليل هيبتك ، كبروز النفس الكلية للنفوس الجزئية ، اذ هم لك كالاولاد ، وانت لهم

كالوالد ، وهم لك كالاجساد ، وانت لهم كالنفس ، وهم لك كالبيوت ، وانت فيهم كالساكن ، اذ كانت كلمتك مودوعة فيهم ، وروحك نازلة عليهم . ويكون خروجك بسكينة ووقار ، في ليل كان ذلك ام في نهار .

فاذا رأيتهم بحيث يرونك ، ويسمعون منك ، ويفهمون عنك ، فاتلُ عليهم من حكمتك ، وعظهم بتذكرتك ، بحسب ما يحتمل مكانهم ، وتتسع له اذهانهم ، واعلمهم وعرّفهم ، بما تلقيه اليهم من الموعظة والتذكرة والحث في طلب العلم ، ان تكون اكثر عنايتهم وقصدهم ، وقصارى همتهم ، سعيهم على البحث عن الامور الالهية ، والاسرار العقلية ، التي هي الغرض الاقصى في اللذة ، وغاية نعيم اهل الجنة ، وبه استكمال الإنس ، والترقي عن عالم الحس ، والتبرؤ من ظلمة الاجسام ، والنجاة من اسر الطبيعة ، وقيد الشهوة ، وبحر الهيولى ، ودار النشوء والبلى ، وعرفهم ان اصلح الاعمال ، واجلّ الافعال ، تفقّدُ اخوانهم ، وتدبير امورهم ، ومعرفة السياسات الدينية والدنيوية ، وما يجب ان يعملوه ، ويعاملوا به اهل الدنيا ، في معيشة الدنيا ، وما يجب لهم وعليهم من اداء الامانة ، وترك الخيانة ، ومحبة بعضهم بعضاً في الله عزّ وجلّ ، وان يتواصلوا ، ويتهادوا ، ويتحابوا ، ويتناصفوا ولا يعصي بعضهم بعضاً ، وان لا يتخاصموا ، ولا يتعادوا ، ولا يتقاطعوا .

وعرفهم باداب الانبياء ، وصفات الحكماء ، واخلاق المؤمنين ، واتلُ عليهم هذه الرسائل من اولها الى آخرها ، رسالة رسالة ، ومقالة مقالة ، وبيّنها لهم باوضح الدلالة ، حتى تستخلص منهم طائفة لنفسك ، وترمقهم بعينك .

فاذا استخلصتهم ، ورضيت سعيهم بعد ايقاعك المحنة بهم في امور دنياهم ، ومواضع المحبوبات منهم ، ... فامرتهم ببعد الاقارب المحبوبين بالله ففعلوا ، وصلة الاباعد في الله فامتثلوا ، ونفقة الاموال في سبيله فانفقوا ، والجهاد بالانفس فبذلوا ، والسعي في ما يرضي الله فسعوا ، والخروج من الاوطان في الله فخرجوا ، وفارقوا الاحباب ، وأيتموا الاولاد ، وارملوا النسوان ، وفارقوا البلاد والاوطان ، فعند ذلك ، اذا صبروا على هذه المحن ، فاهدهم بعلمك ، واتلُ عليهم حكمتك ، وطهرهم بماء الحياة ، واوقفهم على طريق النجاة ، واقرأ عليهم الكتب المصونة ، والاسرار المخزونة ، والعلوم المكنونة ، بشرح ما في هذه الرسالة الجامعة ، وما في غيرها من الكتب التي القيناها اليك ، واودعناها عندك لحياة من قبلك ، وهي : المدارس الاربع ، والكتب السبعة ، والجفران ، والرسائل الخمس والعشرون ، والرسائل الاحدى والخمسون ، والرسالة الجامعة . فعرفهم جميع ذلك ، واوقفهم على الاسرار ، وعلى معاني الاخبار ، والروايات ، والامثال ، والاشارات ، والعلامات ...

وكن لهم اباً شفيقاً ، وطبيباً رفيقاً . ولا تكن نزقاً ، ولا خرقاً ، ولا منحرفاً ، ولا متجبراً ، ولا متكبراً ، ولا متغيراً . ولا تحمّل احداً منهم فوق طاقته ، ولا تكلفه فوق وسعه ...

وحذّر من قبلك من المؤمنين ، وعباد الله الصالحين ، من معاداة العلوم ، والحميّة ، والعصبية لطائفة من الطوائف ، او معرفة من المعارف ، مما عساهم ان يجهلوا معناها ، اذا تعصبوا لما سواها ، وآثروا غيرها عليها من قبل اعتبارهم معانيها ، واطلاعهم على ما فيها. ولا يهجروا كتاباً من كتب الحكمة ، ولا مذهباً من مذاهب الانبياء ،

ولا يبغضوا علماً من العلوم الحقيقية ، وان بعدت معانيها ، وصعبت اشاراتها ... ، لانه من بغض علماً من العلوم فقد جهله ، واذا جهله عاداه وزيّفه ونفاه ، فصار المرء ، اذا فعل ذلك ، عدواً للعلم الذي هو من اخص صفاته .

(الرسالة الجامعة : ٢ : ٣٩٥–٤٠٣)

طوائف اخوان الصفاء

اعلم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، ان شيعتنا واخواننا المتفرقين في البلاد ، وسائر من يُنسب الينا ، فهم في احوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث : فطائفة منهم خواص وعقلاء متدينون اخيار فضلاء . وطائفة منهم اغبياء اشرار ارديا ، وطائفة بين ذلك متوسطون . ولكل طائفة منهم اراء ومذاهب هم فيها مختلفون ، واقاويل مفننة هم بها مشغوفون ، واخلاق وسجايا هم بها متغايرون . ولهم مع ذلك افعال واعمال هم لها معتادون . فنريد ان نذكر كل طائفة منهم باوصافهم ، وندل عليهم بعلاماتهم ، حتى اذا دخلت مدينة او بلداً من البلدان ، ولقيت منهم احداً ، تبينتهم بعلاماتهم ، وعرفتهم بسيماهم ، فلقيتهم بالتحية والسلام ، وداخلت كل طائفة منهم بالطف ما تقتدر عليه من الرفق والمداراة ، وذاكرتهم من علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم ، والقيت اليهم من اسرارنا حسبما تحتمله عقولهم ، وتتسع له نفوسهم ، وتبلغ اليه هممهم ، وتتصوره افهامهم ...

ان من خواص اخواننا الفضلاء انهم العلماء بامور الديانات . العارفون باسرار النبوات ، المتأدبون بالرياضيات الفلسفية ، واذا لقيت

احداً منهم ، وانست منه رشداً ، فبشره بما يسره ، وذكره باستئناف دور الكشف والانتباه ، وانجلاء الغمة عن العباد ، بانتقال القران من برج مثلث النيران الى برج مثلثات النبات والحيوان ، في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الاعلام .

واعلم ان من اخواننا واهل شيعتنا طائفة اخرى بوجودنا شاكون وفي بقائنا ، متحيرون فيما يعتقدون من موالاتنا ، وطائفة اخرى موقنون ببقائنا ، لكنهم غافلون عن امرنا ، غير عارفين باسرارنا ، وكلهم منتظرون لظهور امرنا ، مستعجلون لمجيء ايامنا ، مشتهون نصرة امرنا. فاذا لقيت منهم احداً ، فبشره بما يسره ، وقرّ عينه بما يظنه بعيداً ممّا يؤمله ، وعرّفه ان ما يرجوه غير بعيد . وذكر من وثقت بهم من اخواننا بما القينا اليك من علمنا ، واطلعه على ما اطلعناك عليه من اسرارنا ، كيما تطمئن نفوسهم فيما يعتقدون فينا ، ويتبين لهم صدق ما هم مقرون به من امرنا ، واخرج اليهم من رسائلنا ما ترغب نفوسهم فيه ، وترتاح اليه ، ولكن ذلك على النظام والترتيب كما بيّنا لك ...

واعلم ، يا اخي ، بان في الناس طائفة من اهل ملتنا ، مقرّون بفضلنا وفضل اهل بيتنا ، ولكنهم جاهلون بعلومنا ، غافلون عن اسرارنا وحكمتنا . فمن ذلك انهم يجحدون وجودنا ، وينكرون بقاءنا ، ومع هذا فانهم يزرون بشيعتنا المقرين بوجودنا ، المنتظرين ظهور امرنا ، ومعاندون لهم ، متعصبون عليهم ، ومبغضون لهم . واعلم بان احد الاسباب في ذلك هو ان قوماً من اشرار الناس جعلوا التشيّع ستراً لهم عما يحذرون من الآمرين عليهم بالمعروف ، والناهين لهم عن المنكر فيما يفعلون . وذلك انهم يركبون كل محظور ، ويتركون كل مأمور به ، واذا نهوا عن المنكر فعلوه بارزوا باظهار التشيع ،

واستعاذوا بالعلوية على من ينكر عليهم او ينهاهم عن منكر فعلوه ، ولبئس ما كانوا يعملون .

ومن الناس طائفة ينسبون الينا باجسادهم ، وهم براء بنفوسهم منا ، ويسمون انفسهم العلوية ، وما هم من العلويين ، ولكنهم من اسفل السافلين ، لا يعرفون من امرنا الا نسبة الاجساد ، ولا من القرآن الا اسمه ، ولا من الاسلام الا رسمه ، لا علماً يتعلمون ، ولا فقهاً يدرون ، ولا صلاة يقيمون ، ولا زكاة يؤدون ، ولا البيت يحجون ... ومن شيعتنا ينفرون ، فهم ابعد الناس من اهل ملتنا ، واعدى الناس لشيعتنا ، واجهل الخلق بعلومنا ، واغفل الناس عن حقيقة امرنا ، واسرار حكمتنا ، الا الذين اذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيراً ، واليهم اشار رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : « يا بني هاشم ، لا يأتي النـــاس يوم القيامة باعمالهم ، وتجيئون بانسابكم ، فاني لا اغني عنكم من الله شيئاً . »...

ومن الشيعة من يقول ان الأئمة يسمعون النداء ويجيبون الدعاء ، ولا يدرون حقيقة ما يقرون به ، وصحة ما يعتقدونه . ومنهم من يقول ان الإمام المنتظر مختفٍ من خوف المخالفين ، كلا بل هو ظاهر بين ظهرانيهم ، يعرفهم وهم له منكرون ، كما قيل :

يعرفه الباحث من جنسه   وسائر الناس له منكر

(٤ : ١٩٧-١٩٩)

الفلسفة والدين

يُكرَه النظر في علوم الفلسفة للاحداث والصبيان ، وكل من لم يتعلم علم الدين ، ولا يعرف من احكام الشريعة قدر ما يحتاج اليه ، وما هو فرض عليه ، ولا يسعه جهله وتركه .

فاما من قد تعلم علم الشريعة ، وعرف احكام الدين ، وتحقق امر الناموس ، فان نظره في علم الفلسفة لا يضره ، بل يزيده في علم الدين تحققاً ، وفي امر المعـــاد استبصاراً ، وبثواب الآخرة وبالعقاب الشديد يقيناً ، واليها اشتياقاً ، وفي الآخرة رغبة ، والى الله تعالى قربة .

(١ : ١٠٨–١٠٩)

الدين واحد والشرائع مختلفة

ان الانبياء ، عليهم السلام ، لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سرًا وعلانية ، ولا في شيء منه البتة ، كما قال تعالى : « اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ...

واما الشرائع التي هي اوامر ونواهي واحكام وحدود وسنن ، فهم فيها مختلفون ، كما قال تعالى : « ولكلٍّ جعلنا منكم شرعـــة ومنهاجاً : » ...

ثم اعلم ان اختلاف الشرائع ليس بضارّ ، اذ كان الدين واحدًا . لان الدين هو طاعة وانقياد للرئيس الآمر فيما يأمر وينهى المرؤوسين بحسب ما يليق بواحد واحد ، وما يرى انه يصلح له

ويصلح فيه ، لان اوامر اصحاب النواميس ونواهيهم مماثلة لامر الطبيب الرفيق الشفيق فيما امر العليل من الحِمية في الصيف من تناول الاشياء الحارة بالطبع ، واجازته شرب المبردات في البلدان الحارة ، وفيما يرى ويأمر له . فمن اجل هذا اختلفت شرائع الانبياء عليهم السلام .

وكذلك ان اختلفت سنن الدين وقواعد النواميس ، لانهم اطباء النفوس ومنجموها . وذلك ان في الادوار والقرانات ... قد تعرض للنفوس ، من اهل كل زمان ، امراض وأعلال مختلفة من الاخلاق الرديئة ، والعادات الجائرة ، والآراء الفاسدة من الجهالات المتراكمة ، كما يعرض للاجساد من الامراض والاعلال من تغييرات الزمان والاهوية والاغذية ، فبحسب ذلك يجب ان يكون اختلاف علاجات الاطباء ومداواتهم . فهكذا شرائع الانبياء واختلاف سننهم بحسب اهل كل زمان ، وما يليق بهم ، امة امة ، وقرناً قرناً ، مثل شريعة نوح... ، وشريعة ابرهيم ... ، وشريعة موسى ... ، وشريعة المسيح ... ، وشريعة سيد الانبياء محمد ...

(٤ : ٢٤–٢٥)

غرض الانبياء والحكماء واحد

ان غرض الانبياء ، عليهم السلام ، وواضعي النواميس الالهية اجمع ، غرض واحد ، وقصد واحد ، وان اختلفت شرائعهم ، وسنن مفترضاتهم ، وازمان عباداتهم ، واماكن بيوتاتهم وقرابينهم وصلواتهم ، كما ان غرض الاطباء كلهم غرض واحد ومقصد واحد في حفظ

الصحة الموجودة ، واسترجاع الصحة المفقودة ، وان اختلفت علاجاتهم في شرباتهم وادويتهم ، بحسب اختلاف الامراض العارضة للابدان في الاوقات المختلفة ، والعادات المتغايرة ، والاسباب المفننة من الاهوية والبلدان .

وذلك ان غرض الاطباء كلهم هو اكتساب الصحة للمريض ، وحفظها على الاصحاء ، ودفع الامراض وازالتها عن المرضى ، فهكذا غرض الانبياء ، عليهم السلام ، وغرض جميع واضعي النواميس الالهية من الحكماء والفلاسفة ، وذلك انهم اطباء النفوس ، وغرضهم هو نجاة النفوس الغريقة في بحر الهيولى ، واخراجها من هاوية عالم الكون والفساد ، وايصالها الى الجنة ، علم الافلاك وسعة السماوات ، بتذكيرها ما قد نسيت من مبدإها ومعادها ...

(٢ : ١٢٠-١٢١)

اقسام الدين

اعلم ان الدين ينقسم ثلاثة اقسام ، كل قسم منها يصلح لطائفة من الناس ، الطالبين للهداية . القسم الاول يصلح للخواص من الناس ، والثاني للمتوسطين منهم ، والثالث للنسوان والصبيان يتربون وينشأون عليه ، ويطمئنون به ، ويستأنسون اليه .

فالقسم المخصوص به خواص الناس العلم والعمل ، بعد التصديق بالرسل ، وولاية أولي الامر من بعدهم .

والقسم الثاني ، المختص بالمتوسطين من الناس ، العمل بظواهر الشريعة والاقرار بعلم باطنها ، وانه الحق ، وترك التكذيب والانكار له ، او لشيء منه .

والقسم الثالث ، الذي يصلح للنساء والصبيان واللاحقين بهم في العقل من الرجال ، التصديق بالرسول وما جاء به ، والعمل من ذلك بقدر ما في وسعهم ، وما هو اصلح لهم ، من ذكر النـــار وعذابها ، والتخويف من الفساد والظلم ، وسوء عاقبته في الدنيا والآخرة .

ولكل قسم من هذه الاقسام آداب تصلح لها ، وعلوم تختص بها ، وانت بتوفيق الله قد وقفت عليها ، ووصلت اليها .

(الرسالة الجامعة : ٢ : ٣٤٤)

التقليد في الدين

ان العلماء لا يشكّون في علم وادب قد تعلّموه وفكّروه بقول المنكرين له ، والجاهلين به . وهكذا العقلاء مجبولون على ان لا يترك احدهم ديناً ومذهباً قد نشأ عليه ، وانس به ، وقد اعتاد التعبد بطول الزمان على سنته ، واخذه عن ابائه وشيوخه واستاذيه ، من غير ان يتبين له بطلانه او ينكشف له عوار . وهكذا لا يرغب احد منهم في الدخول في دين او مذهب لم تتبين له صحته ، ولم تصح له حقيقته ، ولا قامت عنده حجته ، فلا تلم الناس على تمسكهم بدين آبائهم ، ومذاهب اسلافهم .

فاعلم ان الحق في كل دين موجود ، وعلى كل لسان جار ، وان الشبهة دخولها على كل انسان جائز ممكن . فاجتهد ، يا اخي ، ان تبين الحق لكل صاحب دين ومذهب مما هو في يده ، او مما هو متمسك به ، وتكشف عنه الشبهة التي دخلت عليه ... ولا تمسك بما انت عليه من دينك ومذهبك ، واطلب خيراً منه . فان وجدت

فلا يسعك الوقوف على الادون ، ولكن واجب عليك الاخذ بالاخير والافضل ، والانتقال اليه .

ولا تشتغلن بذكر عيوب مذاهب الناس ، ولكن انظر هل لك مذهب بلا عيب . واعلم ان الانسان العاقل قد تخفى عليه عيوب مذهبه كما تخفى عليه مساوئ اخلاقه ، وقبائح افعاله ، وسيئات اعماله ، وتسنح له عيوب غيره ، ومساوئ اخلاقه ، وقبيح افعاله .

(٤ : ٣٧–٣٨)

العقل رئيس

انه ما من جماعة تجتمع على امر من امور الدين والدنيا ، وتريد ان يجري امرها على السداد ، وتكون سيرتها على الرشاد ، الا ولا بد لها من رئيس يرئسها ليجمع شملها ، ويحفظ نظام امرها ، ويراعي تصرف احوالها ، ويرم[1] على الانتشار جماعتها ، ويمنع من الفساد صلاحها ...

ونحن قد رضينا بالرئيس على جماعة اخواننا ، والحكم بيننا ، العقل الذي جعله الله تعالى رئيساً على الفضلاء من خلقه الذين هم تحت الامر والنهي ، ورضينا بموجبات قضاياه ، على الشرائط التي ذكرناها في رسائلنا ، واوصينا بها اخواننا . فمن لم يرضَ بشرائط العقل ، وموجبات قضاياه ، ولم يقبل تلك الشرائط التي اوصينا بها اخواننا ، او خرج عنها بعد الدخول فيها ، فعقوبته في ذلك ان نخرج من صداقته ، ونتبرأ من ولايته ، ولا نستعين به في امورنا ،

١) يصلح .

ولا نعاشره في معاملتنا ، ولا نكلمه في علومنا ، ونطوي دونه اسرارنا ، ونوصي بمجانبته اخواننا .

(٤ : ١٨١)

واعلم ان العقلاء الاخيار ، اذا انضاف الى عقولهم القوة بواضع الشريعة ، فليس يحتاجون الى رئيس يرئسهم ويأمرهم وينهاهم ويزجرهم ويحكم عليهم ، لان العقل والقدرة لواضع النواميس يقومان مقـــام الرئيس الإمام . فهلم بنا ايها الأخ ، ان نقتدي بسنة الشريعة ، ونجعلها إماماً لنا فيما عزمنا عليه ، والله يوفقك انه جواد كريم .

(٤ : ١٨٩)

الناجي والهالك

قال الناجي للهالك : كيف اصبحت ، يا فلان ؟

قال اصبحت في نعمة من الله ، طالباً الزيادة ، راغباً فيها ، حريصاً على جمعها ، ناصراً لدين الله ، معادياً لاعداء الله ، محارباً لهم .

قال الناجي : ومن اعداء الله هؤلاء ؟

قال : كل من خالفني في مذهبي واعتقادي.

قال : وان كان من اهل لا اله الا الله ؟

قال : نعم .

قال : ان ظفرت بهم ، ماذا تفعل بهم ؟

قال له : ادعوهم الى مذهبي واعتقادي ورأيي .

قال : فان لم يقبلوا منك ؟

قال : اقاتلهم ، واستحل دماءهم واموالهم ، واسبي ذراريهم .

قال : فان لم تقدر عليهم ، ماذا تفعل ؟

قال : ادعو عليهم ليلاً ونهارًا ، والعنهم في الصلاة ، كل ذلك تقرباً الى الله تعالى .

قال : فهل تعلم انك اذا دعوت عليهم ، ولعنتهم ، يصيبهم شيء؟

قال : لا ادري . ولكن اذا فعلت ما وصفت لك وجدت لقلبي راحة ، ولنفسي لذة ، ولصدري شفاء .

وقال له الناجي : أتدري لمَ ذلك ؟

قال : لا . ولكن قل انت .

قال : لانك مريض النفس ، معذب القلب ، معاقب الروح ، لان اللذة انما هي خروج من الآلام ، ثم اعلم انك محبوس في طبقة من طبقات جهنم ...

ثم قال الهالك للناجي : اخبرني انت عن رأيك ومذهبك ، وحال نفسك كيف هي .

قال : نعم . اما انا فاني ارى اني قد اصبحت في نعمة من الله واحسان لا احصي عددها ، ولا اؤدي شكرها ، راضياً بما قسم الله لي وقدّر ، صابرًا لاحكامه ، لا اريد لاحد من الخلق سوءًا ، ولا اضمر لهم دغلاً ، ولا انوي لهم شرًا . نفسي في راحة ، وقلبي في فسحة ، والخلق من جهتي في أمان ! اسلمت لربي مذهبي ، وديني دين ابرهيم ...

(٣ : ٢٩٨–٢٩٩)

نشوء الدول

ينبغي لاخواننا ، اذا حضروا المجلس ، ومعهم اخ مستجيب مستحدث ، ان يُقرأ عليهم هذه الخطبة :

اعلموا ايها الاخوان ، ايدكم الله وايانا بروح منه ... ان كل دولة لها وقت منه تبتدئ ، ولها غاية اليها ترتقي ، وحد اليها تنتهي . واذا بلغت الى اقصى مدى غاياتها ، ومنتهى نهاياتها ، اخذت في الانحطاط والنقصان ، وبدا في اهلها الشوءم والخذلان ، واستأنف في الاخرى القوة والنشاط ، والظهور والانبساط ، وجعل ، كل يوم ، يقوى هذا ويزيد ، ويضعف ذلك وينقص ، الى ان يضمحل الاول المتقدم ، ويتمكن الحادث المتأخر ...

وقد ترون ، ايها الاخوان ، ايدكم الله وايانا بروح منه ، انه قد تناهت قوة اهل الشر ، وكثرت افعالهم في العالم في هذا الزمان ، وليس بعد التناهي في الزيادة الا الانحطاط والنقصان .

واعلم ان الملك والدولة ينتقلان في كل دهر وزمان ، ودور وقران ، من امة الى امة ، ومن اهل بيت الى اهل بيت ، ومن اهل بلد الى اهل بلد .

واعلموا ان دولة اهل الخير يبدأ اولها من اقوام خيار فضلاء يجتمعون في بلد ، ويتفقون على رأي واحد ، ودين واحد ، ومذهب واحد ، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً بانهم يتناصرون ولا يتخاذلون ، ويتعاونون ولا يتقاعدون عن نصرة بعضهم بعضاً ، ويكونون كرجل واحد في جميع امورهم ، وكنفس واحدة في جميع تدابيرهم ، وفي ما يقصدون من نصرة الدين وطلب الآخرة ، لا يعتقدون سوى رحمة الله ورضوانه عوضاً .

(٤ : ٢٢٣—٢٣٥)

الطبيب الحكيم

ذكروا انه كان رجل من الحكماء رفيقاً بالطب دخل الى مدينة من المدن ، فرأى عامة أهلها بهم مرض خفي لا يشعرون بعلتهم ، ولا يحسون بدائهم الذي بهم . ففكر ذلك الحكيم في امرهم كيف يداويهم ليبرئهم من دائهم ، ويشفيهم من علتهم التي استمرت بهم. وعلم انه ان اخبرهم بما هم فيه لا يستمعون قوله ، ولا يقبلون نصيحته ، بل ربما ناصبوه بالعداوة ، واستعجزوا رأيه ، واستنقصوا آدابه ، واسترذلوا علمه . فاحتال عليهم في ذلك ، لشدة شفقته على ابناء جنسه ، ورحمته لهم ، وتحننه عليهم ، وحرصه على مداواتهم طلباً لمرضاة الله ، عز وجل ، بان طلب من اهل تلك المدينة رجلاً من فضلائهم الذين كان بهم ذلك المرض ، فاعطاه شربة من شربات كانت معه قد اعدها لمدواتهم ، وسعطه بدخنة كانت معه لمعالجتهم ، فعطس ذلك الرجل من ساعته ، ووجد خفة في بدنه ، وراحة في حواسه ، وصحة في جسمه ، وقوة في نفسه .

فشكر له ، وجزاه خيراً ، وقال له : هل لك من حاجة اقضيها لك مكافأة لما اصطنعت الي من الاحسان في مداواتك لي ؟

فقال : نعم . تعينني على مداواة اخ من اخوانك .

قال : سمعاً وطاعة لك .

فتوافقا على ذلك ، ودخلا على رجل آخر ممن رأوا انه اقرب الى الصلاح ، فخلوا به من رفقائه ، وداوياه بذلك الدواء ، فبرأ من ساعته . فلما افاق من دائه ، جزاهما خيراً ، وبارك فيهما ، وقال لهما : هل لكما حاجة اقضيها لكما مكافأة لما صنعتما الي من الأحسان والمعروف ؟

فقالا : تعيننا على مداواة اخ من اخوانك .

فقال : سمعاً وطاعة لكما !

فتوافقوا على ذلك ، ولقوا رجلاً آخر فعالجوه وداووه بمثل الاول ، فبرئ ، وقال لهم مثل قول الاولين ، وقالوا له مثل ما قال الاول .

ثم تفرقوا في المدينة يداوون الناس واحداً بعد اخر في السرّ ، حتى أبرأوا اناساً كثيراً ، وكثر انصارهم واخوانهم ومعارفهم ، ثم ظهروا للناس ، وكاشفوهم بالمعالجة ، وكابروهم بالمداواة قهراً . وكانوا يلقون واحداً واحدا من الناس ، فيأخذ منهم جماعةٌ بيديه ، وجماعة برجليه ، ويسعطه الاخرون كرهاً ، ويسقونه جبراً ، حتى أبرأوا اهل المدينة كلهم . (٤ : ٨٢—٨٣)

الرسالة الجامعة

اعلم ، ايها الاخ البار الرحيم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، انّا ... قد لخصنا ما اوردناه في رسائلنا الاحدى والخمسين في رسالة مفردة عن الرسائل سميناها « الجامعة » . وهي خارجة من جملة الرسائل ، اوردنا فيها بيان ما اخبرناه في غيرها باخص ما امكننا منه . فليس تكاد تجتمع رسائلنا كلها عند رجل واحد الا من سهّل الله تعالى له ذلك ، فعملنا تلك الرسالة لتنوب عن اخواتها . غير ان الاصوب والاجود عندنا ان لا تقرأ الرسالة الجامعة الا بعد قراءة رسائلنا الاحدى والخمسين . فانه اذا قرأها بعد قراءة هذه كثر نفعه ، وانفتح عليه ما انغلق من رسائلنا . وان وجدها ، وفاتته الرسائل او بعضها ، لم يخلُ من فوائدها . (٤ : ٢٩٠)

الرسائل بستان

اعلم ، يا اخي ، ايدك الله وايانا بروح منه ، بان مثل صاحب هذه الرسائل مع طالبي العلم ، ومؤثري الحكمة ، ومن احب خلاصه واختار نجاته ، كمثل رجل حكيم ، جواد كريم ، له بستان خضر نضر بهج مونق معجب ، طيب الثمرات ، لذيذ الفواكه ، عطر الرياحين ، أرِجة[1] الاوراد ، فائحة الازهار ، بهية المنظر ، نزهة المرامي ، مختلفة الاشكال والاصباغ والالوان والمذاق والمشام ، من بين رطب ويابس ، وحلو وحامض ، وفيها من سائر الطيور المطربة الاصوات ، الملهية الالحان ، المستحسنة التغريد ، تطّرد تحت اشجارها انهار جارية ، وخلال ازهارها وخضرها جداول منسابة تموج . وفي حافات الانهار خضر مونقة ، واصداف مشرقة الالوان ، وجواهر متناسبة الاصباغ ، رائقة المناظر ، عجيبة الصور ، بديعة التأليف ، غريبة التنضيد ، فرحةُ كل نفس ، ونزهة كل عين ، مسلاة كل هم ، مدعاة كل أنس . فاراد لكرم نفسه وسخاء سجيته ، ان يدخلها كلّ مستحق ، ويتلذذ فيها وبها كل مشرف عاقل ، فنادى في الناس ان هلموا وادخلوا هذا البستان ، وكلوا من ثمارها ما اشتهيتم ، وشموا من رياحينها ما اخترتم ، وتفرجوا كيف شئتم ، وتنزهوا اين هويتم ، وافرحوا واطربوا ، وكلوا واشربوا ، وتلذذوا وتنعموا ، واستروحوا بطيبها ، وتنسموا بروائحها ، فلم يجبه احد ، ولم يصدقه خلق ، ولا عبئوا به ، ولا التفتوا اليه ، استعظاماً لقوله ، واستبعاداً لوصفه ، واستنكاراً لكلامه ، واستغراباً لذكره . فرأى الحكيم من الرأي ان

---

[1] ان اخوان الصفاء يستعملون لفظ بستان طوراً كمذكر ، وتارة كمؤنث كما يبدو اكثر من مرة في هذا النص .

وقف على باب البستان ، واخرج مما فيه تحفاً وطرفاً ولطفاً ، من كل ثمرة طيبة ، وفاكهة لذيذة ، وريحان زكي ، وورد جني ، ونور انيق ، وجوهر بهي ، وطير غرد ، وشراب عذب . فكل من مرّ به ، عرضها عليه ، وشهّاها اليه ، وذوّقه منها ، وحيّاه بها ، واشمّه من فوائح الرياحين واسمعه من بدائع التلحين ، حتى اذا ذاق وشم ، وفرح به ، وطرب منه ، وارتاح اليه واهتز ، وعلم انه قد وقف على جميع ما في البستان ، ومالت اليه نفسه ، واشتاق الى دخول البستان ، وتمنّاه ، وقلق اليه ، ولم يصبر عنه ، فقال له عند ذلك : ادخل البستان ، وكلْ ما شئت ، وشمّ ما شئت ، واختر ما شئت ، وانظر كيف شئت ، وتنزه اين شئت ، جئ من اين شئت ، وتلذذ ، وتنعم ، وتطيب ، وتنسم !

(١ : ٢٩—٢٠)

مطابقة العدد للطبيعة

ان الاشياء التي فوق الطبيعة على اربع مراتب : اولها الباري جل جلاله ، ثم دونه العقل الكلي الفعّال ، ثم دونه النفس الكلية ، ثم دونه الهيولى الاولى ، وكل هذه ليست باجسام .

واعلم يا أخي ، أيدك الله وايانا بروح منه ، بان نسبة الباري جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، ونسبة العقل منها كنسبة الاثنين من العدد ، ونسبة النفس من الموجودات كنسبة الثلاثة من العدد ، ونسبة الهيولى الاولى كنسبة الاربعة .

واعلم يا أخي ، ايدك الله وإيانا بروح منه ، بان العدد كله ، آحاده وعشراته ومئاته والوفه أو ما زاد بالغاً ما بلغ ، فاصلها كلها

من الواحد الى الاربعة ، وهذه هي : ١، ٢، ٣، ٤ . وذلك ان سائر الاعداد كلها من هذه يتركب ، ومنها ينشأ ، وهي أصل فيها كلها. بيان ذلك اذا أضيف واحد الى أربعة كانت خمسة ، وان أضيف اثنان الى اربعة كانت ستة ، وان اضيف ثلاثة الى اربعة كانت سبعة ، وان اضيف واحد وثلاثة الى اربعة كانت ثمانية ، وان اضيف اثنان وثلاثة الى أربعة كانت تسعة ، وان اضيف واحد واثنان وثلاثة الى اربعة كانت عشرة ، وعلى هذا المثال حكم سائر الاعداد من العشرات والمئات والالوف وما زاد بالغاً ما بلغ ...

واعلم يا أخي ، أيدك الله بروح منه ، بانك اذا تأملت ما ذكرنا من تركيب العدد من الواحد الذي قبل الاثنين ونشوئه منه وجدته من أدل الدليل على وحدانية الباري جل ثناؤه ، وكيفية اختراعه الأشياء وإبداعه لها . وذلك ان الواحد الذي قبل الاثنين ، وان كان منه يتصور وجود العدد وتركيبه ، كما بينّا قبل . فهو لم يتغير عما كان عايه ولم يتجزأ . كذلك الله عز وجل ، وان كان هو الذي اخترع الاشياء من نور وحدانيته ، وابدعها وانشأها ، وبه قوامها وبقاؤها وتمامها وكمالها ، فهو لم يتغير عما كان عليه من الوحدانية قبل اختراعه وإبداعه لها ، كما بينا في رسالة المبادئ العقلية. فقد أنبأناك بما ذكرنا من ان نسبة الباري جل ثناؤه من الموجودات كنسبة الواحد من العدد ، وكما ان الواحد أصل العدد ومنشأه وأوله وآخره ، كذلك الله عز وجل هو علة الاشياء وخالقها وأولها وآخرها . وكما ان الواحد لا جزء له ، ولا مثل له في العدد ، فكذلك جل ثناؤه لا مثل له في خلقه ولا شبه . وكما ان الواحد محيط بالعدد كله ويعده كذلك الله جل جلاله عالم بالاشياء وماهياتها ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . (١: ٢٧-٢٨)

القضاء والقدر

القدر هو تقدير الباري سبحانه الاشياء على الصورة التي هي بها ، خارجة من العدم الى الوجود ، مرتبة في اماكنها ، لا يعدو بعضها بعضاً ... ، فالاول لا يكون متأخرًا ، والمتأخر لا يكون اولاً ، «فقال « انّا كلّ شيء خلقناه بقَدَر.» والقدر هو وضع الشيء في موضعه اللائق به ، وكونه في مكان يحسن كونه فيه .

والقضاء هو ما اوجب في الحكمة من العناية بالعالم من تكليف الاستطاعة الموجودة فيهم ... ان القضاء هو ما قضاه الله ، عز وجل ، في سابق علمه انه لا يكلف خلقه الا ما جعله في وسعهم وطاقتهم ، فقال « لا يكلف الله نفساً الا وُسعَها » ، فمتى تكلفوا غير ذلك مما نهاهم عنه عذبهم ، لانهم خرجوا من قضائه وحكمه ، وعدلوا عن وصيته ... ، فان الخروج من قضائه هو معصيته ...

فبالبرهان الصادق قد بان ما القضاء والقدر ، والردّ على اهل الجبر القائلين ان اصل الشر من صاحب الخير ، وانه يريد ان يكون الشر شرًا كما اراد ان يكون الخير خيرًا . فيقال لهم : بايهما بدأ ، والى ايهما دعا ، وعن ايهما نهى ؟ فلا بد ان يقولوا : بالخير . فاذا قالوا ذلك ، فقد اوجبوا انه غير مريد للشر ، لاهماله الدعاء اليه ، والحث عليه ، فبالبرهان الصادق بطل قولهم ، واندحضت حجتهم .

فان قالت الثنوية : ان الخير والشر فعلان متضادان غير متفقين ، وان لهما خالقين متضادين ، فليعلم هؤلاء المتخلفون عن اتباع الحق بالبرهان الصادق ان فاعل الخير خير كله ، وان فاعل

الشر شر كله ، وان من الخير ابطال الشر ... وايضاً فان الخير يدعو الى البقاء ، والشر يدعو الى الفناء ، ولما كان البقاء من صفات الازلي القديم، والفناء من صفات العدم المتلاشي ، وجد ان يكون صاحب البقاء رب صاحب الفناء ، ومتقدم الوجود عليه ، فوجبت له الوحدانية ، وزالت الثنوية ، وصار الثاني تابعاً للاول . والواحد متقدم الوجود على الثاني ، والثاني تابع له ، فلذلك قيل ان الشر لا اصل له في الابداع من جهة المبدع سبحانه ، وان القضاء والقدر ليسا بشر ، وان المخلوق ليس معاناً على فعل الشر .

(الرسالة الجامعة : ١ : ٦٦-٧٣)

لا بعث للاجساد

وكان مما سأل الفتى ذلك الحكيم ايضاً ان قال له : اخبرني ماذا يرى الحكماء في حال النفوس بعد مفارقتها الجسد ، على الشرائط التي ذكرت ، وصعودها الى ملكوت السماء ، هل تشتاق هذا الجسد او تتمنى العود اليه ؟

قال الحكيم : ذكروا ان ملكاً من الملوك كان له ابن كريم عليه فزوجه بابنة ملك ، وزفّها اليه على احسن ما يكون من الكرامات ، كما تزف بنات الملوك ، واصلح للحاشية دعوة سبعة ايام لا يعرفون غير الاكل والشرب والغناء والفرح والسرور ...

فاتفق ليلة ان نام اهل المجلس كلهم من السكر ، وقام الفتى يمشي في الدار حتى خرج من باب الدار ، وجُعل في الشارع ، ومشى حتى خرج من المدينة ، فوقع في الصحراء ولم يدر اين هو .

ثم انه رأى ضوءًا من بعيد ، فذهب نحوه حتى قرب منه ، فاذا هو بباب مردود ، والضوء من داخله . فدفع الباب ، فاذا هو بقوم نيام مطروحين يمنة ويسرة ، وكل واحد ملفوف في ازار ، فظن انها حجرة العروس ، وان اولئك النيام جواريها وخدمها . فجعل يناديهم ، فلم يجبه احد منهم ، فظنّ ان ذلك من شدة سكرهم . فجعل يلتمس العروس من بينهم حتى وقعت يده على واحدة هي اطراهن ثياباً ، وأطيبهن ريحاً ، فظن انها عروسه ، فاضطجع معها...

فلما اصبح ، وزال سكره ، نادى بالخادم فلم يجبه احد . وجعل يحرك العروس فلا تجيبه ، ولا تنتبه .

فلما طال ذلك عليه ، فتح عينيه ، فاذا هو في ناووس خرب ، واذا اولئك النيام كلهم جيف الموتى ، واذا هو بجنب امرأة عجوز قد ماتت منذ قريب ، وعليها اكفان جدد ، وحنوط طري ، واذا الدم والصديد قد سال منها ، وتلوثت ثيابه وبدنه ووجهه من تلك الدماء والصديد والقاذورات !...

ثم قال الحكيم للفتى : ما تقول ، وما ترى ؟ هل ذلك الغلام يريد ، بعد ما نجّاه الله تعالى من مبيته تلك الليلة في الناووس ، العود اليه ، ويشتاق الى معانقتها ، يعني تلك العجوز الميتة ، ليلة اخرى ؟

قال الفتى : لا .

قال الحكيم : فهكذا يرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقتها للاجساد ، وصعودها الى ملكوت السماء انها لا تشتاق الى هذا الجسد ، ولا تريد العود اليه بل تأنف من الفكر فيه ، وتشمئز من فعله وذكره . (٤ : ٢١٢-٢١٤)

الجنة وجهنم

اعلم ، وتيقن ، ولا تشك في ان جهنم هي عالم الكون والفساد الذي هو دون فلك القمر ، وان الجنة هي عالم الارواح وسعة السماوات ، وان اهل جهنم هم النفوس المتعلقة باجساد الحيوانات التي تنالها الآلام والاوجاع دون سائر الموجودات في العالم ، وان اهل الجنة هم النفوس الملكية التي في عالم الافلاك وسعة السماوات ، في روح وريحان ، البريئة من الاوجاع والآلام.

(٣ : ٧٨)

اعلم ايها الاخ البار الرحيم ، ايدك الله وايانا بروح منه ، ان العاقل الفهم ، اذا نظر في علم النجوم ، وفكر في سعة هذه الافلاك ... تشوقت نفسه الى الصعود الى الفلك ، والنظر الى ما هناك معاينة .

ولكن لا يمكن الصعود الى ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، بل النفس اذا فارقت هذه الجثة ، ولم يعقها شيء من سوء افعالها ، او فساد ارائها ، وتراكم جهالاتها او رداءة اخلاقها ، فهي هناك في اقل من طرفة عين ، بلا زمان ، لان كونها حيث همتها ومحبوبها ، كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه . فاذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد ، ومعشوقها هذه اللذات المحسوسة المحرقة الجرمانية ، وشهواتها هذه الزينة الجسمانية ، فهي لا تبرح من ههنا ، ولا تشتاق الصعود الى عالم الافلاك ، ولا تفتح لها ابواب السماوات ، ولا تدخل الجنة مع زمر الملائكة ، بل تبقى تحت فلك القمر ، سائحة في قعر هذه الاجساد ، المستحيلة المتضادة تارة من الكون الى الفساد ، وتارة من الفساد الى الكون ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ،

ليتذوقوا العذاب ، لابثين فيها احقاباً ، ما دامت السماوات والارض ، لا يذوقون فيها برد عالم الارواح ... ويروى عن رسول الله ، صلّى الله عليه وآله وسلّم ، انه قال : الجنة في السماء ، والنار على الارض . (١ : ٩١-٩٢)

فصل في تأثير طبيعة البلدان في الاخلاق

واعلم يا اخي بان تراب البلاد والمدن والقرى تختلف ، واهويتها تتغير ، من جهات عدة . فمنها كونها في ناحية الجنوب ، او الشمال او الشرق ، او الغرب ، او على رؤوس الجبال ، او في بطون الاودية والاغوار ، او على سواحل البحار ، او شطوط الانهار ، او في البراري والقفار ، او في الآجام والدحال[١] والارض ذات الرملة والارضين السباخ[٢] السهلة ، او في البقاع الصخرية والحجارة والحصى والرمال ، او في الارضين السهلة والتربة اللينة بين الانهار والاشجار والزروع والبساتين والزهر والنور . وايضاً فان اهوية البلاد والبقاع تختلف ، بحسب اختلاف تصاريف الرياح الاربع ونكباواتها ، وبحسب مطالع البروج عليها ومطارح شعاعات الكواكب عليها من آفاقها ، وهذه كلها تؤدي الى اختلاف امزجة الاخلاط ، واختلاف امزجة الاخلاط يؤدي الى اختلاف اخلاق اهلها وطباعهم والوانهم ولغتهم وعاداتهم وآرائهم ومذاهبهم واعمالهم وصنائعهم وتدابيرهم وسياساتهم ، لا يشبه بعضها بعضاً ، بل تنفرد كل امة منها باشياء من هذه التي تقدم ذكرها لا يشاركها فيها غيرها .

---

١) الدحال : طرق في الجبال .
٢) السباخ : الغير المحروثة .

مثال ذلك ان الذين يولدون في البلاد الحارة ، ويتربون هناك ، وينشأون على ذلك الهواء ، فان الغالب على باطن امزجة ابدانهم البرودة .وهكذا ايضاً الذين يولدون في البلدان الباردة ، ويتربون هناك ، وينشأون على ذلك الهواء ، يكون الغالب على باطن امزجة ابدانهم الحرارة ... والدليل على ما قلنا ان مزاج ابدان اهل البلدان الجنوبية ، من الحبشة والزنج والنوبة واهل السند واهل الهند، فانه لما كان الغالب على اهوية بلادهم الحرارة بمرور الشمس على سَمت[1] تلك البلاد في السنة مرتين، سخنت اهويتها ، فحمي الجو، فاحترقت ظواهر ابدانهم ، واسودت جلودهم ، وتجعدت شعورهم ، لذلك السبب ، وبردت بواطن ابدانهم وابيضت عظامهم واسنانهم، واتسعت عيونهم ومناخرهم وافواههم بذلك السبب .

وبالعكس في هذا حال اهل البلدان الشمالية . وعلتها ان الشمس لما بعدت من سمت تلك البلاد ، وصارت لا تمر عليها لا شتاءً ولا صيفاً ، غلب على اهويتها البرد وابيضت لذلك جلودهم ، وترطبت ابدانهم ، واحمرت عظامهم واسنانهم ، وكثرت الشجاعة والفروسة فيهم ، وسبطت شعورهم ، وضاقت عيونهم ، واستجنت الحرارة في بواطن ابدانهم ، لذلك السبب . وعلى هذا القياس توجد صفات اهل البلدان المتضادة بالطباع والاهوية يكونون مختلفين في الطباع والاخلاق في اكثر الامر ، واعمّ الحالات .

(١ : ٢٣٢-٢٣٤)

---

١) السمت : نقطة في قرص الفلك .

اثر التربية والمذهب في الاخلاق

ان رجلين اصطحبا في بعض الاسفار ، احدهما مجوسي من اهل كرمان ، والآخر يهودي من اهل اصفهان . وكان المجوسي راكباً على بغلة ، عليها ما يحتاج اليه المسافر في سفره من الزاد والنفقة والاثاث ، فهو يسير مرفهاً ، واليهودي كان ماشياً ، ليس معه زاد ولا نفقة . فبينا هما يتحدثان ، اذ قال المجوسي لليهودي : ما مذهبك واعتقادك يا خوشاك ؟ قال اليهودي : اعتقادي ان في هذه السماء إلهاً ، هو اله بني اسرائيل ، وانا أعبده واسأله واطلب اليه ومنه سعة الرزق ، وطول العمر وصحة البدن ، والسلامة من الآفات ، والنصرة على الاعداء ، اريد منه الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي ، ولا افكر فيمن يخالفني في ديني ومذهبي ، بل ارى واعتقد ان من يخالفني في ديني ومذهبي ، فحلال لي دمه وماله ، وحرام عليَّ نصرته او نصيحته او معاونته او الرحمة او الشفقة عليه . ثم قال للمجوسي : قد اخبرتك عن مذهبي واعتقادي ، لما سألتني عنه ، فاخبرني ، يا مغا ، انت ايضاً عن مذهبك واعتقادك . قال المجوسي : اما اعتقادي ورأيي فهو اني اريد الخير لنفسي ، ولابناء جنسي كلهم ، ولا اريد لاحد من الخلق سوءًا ، لا لمن كان على ديني ويوافقني ، ولا لمن يخالفني ويضادني في مذهبي . فقال اليهودي له : وان ظلمك وتعدى عليك ؟ قال : نعم لاني اعلم ان في السماء الهاً خبيراً فاضلاً عادلاً حكيماً عليماً ، لا تخفى عليه خافية في امر خلقه ، وهو يجازي المحسنين باحسانهم ، ويكافئ المسيئين على اساءتهم . فقال اليهودي للمجوسي : فلست اراك تنصر مذهبك ، وتحقق اعتقادك ! فقال المجوسي : وكيف ذلك ؟ قال : لاني من

ابناء جنسك ، وانت تراني متعوباً جائعاً ، وانت راكب شبعان مترفه . قال : صدقت ! وماذا تريد ؟ قال : اطعمني ، واحملني ساعة لاستريح ، فقد اعييت . فنزل المجوسي عن بغلته ، وفتح له سفرته فاطعمه ، حتى اشبعه . ثم اركبه ، ومشى معه ساعة يتحدثان. فلما تمكن اليهودي من الركوب ، وعلم ان المجوسي قد أعيا ، حرّك البغلة ، وسبقه . وجعل المجوسي يمشي فلا يلحقه . فناداه : ياخوشاك ، قف لي ، وانزل ، فقد اعييت ! فقال له اليهودي : اليس قد اخبرتك عن مذهبي ، يا مغا ، وخبرتني عن مذهبك ونصرتَه وحققتَه ؟ وانا اريد ايضاً ان انصر مذهبي ، واحقق اعتقادي . وجعل يجري البغلة ، والمجوسي في أثره يعدو ، ويقول : ويحك ، يا خوشاك ، قف لي قليلاً ، واحملني معك ، ولا تتركني في هذه البرية تأكلني السباع ، واموت جوعاً وعطشاً ، وارحمني كما رحمتك . وجعل اليهودي لا يفكر في ندائه ، ولا يلوي عليه ، حتى مضى وغاب عن بصره . فلما يئس المجوسي منه ، واشرف على الهلاك ، تذكر تمام اعتقاده ، وما وصف له بان في السماء إلها خبيراً فاضلاً عالماً عادلاً ، لا يخفى عليه من امر خلقه خافية ، فرفع رأسه الى السماء ، فقال : يا الهي ، قد علمتَ اني قد اعتقدتُ مذهباً ، ونصرته ، وحققته ، ووصفتك بما سمعت ، وعلمت ، وتحققت ، فحقق عند اليهودي خوشاك ما وصفتك به ليعلم حقيقة ما قلت . فما مشى المجوسي الا قليلاً حتى رأى اليهودي ، وقد رمت به البغلة ، فاندقت عنقه ، وهي واقفة بالبعد منه تنتظر صاحبها . فلما لحق المجوسي بغلته ركبها ، ومضى لسبيله ، وترك اليهودي يقاسي الجهد ، ويعالج كروب الموت . فناداه اليهودي : يا مغا ، ارحمني ، واحملني ، ولا تتركني في هذه البرية تأكلني السباع ، واموت جوعاً وعطشاً ، وحقق مذهبك ، وانصر اعتقادك ،

قال المجوسي : قد فعلت مرة ، ولكن بعد لم تفهم ما قلت لك ، ولم تعقل ما وصفت لك . فقال اليهودي : وكيف ذلك ؟ فقال : لاني وصفت لك مذهبي ، فلم تصدقني بقولي ، حتى حققته بفعلي . وانت بعد لم تعقل ما قلت لك ، وذلك اني قلت لك ان في السماء الهاً خبيراً فاضلاً عالماً عادلاً ، لا يخفى عليه خافية ، وهو يجازي المحسنين باحسانهم ، ويكافئ المسيئين باساءتهم . قال اليهودي : قد فهمت ما قلت ، وعلمت ما وصفت . فقال له المجوسي : فما الذي منعك ان تتعظ بما قلت لك ، يا خوشاك ؟ فقال اليهودي : اعتقاد قد نشأت عليه ، ومذهب قد ألفته ، وصار عادة وجبلة بطول الدؤوب فيه ، وكثرة الاستعمال له ، اقتــداء بالآباء والامهات والأستاذين والمعلمين من اهل ديني ومذهبي وقد صار جبلة وطبيعة ثانية يصعب علي تركها والاقلاع عنها ، فرحمه المجوسي ، وحمله معه ، حتى جاء به الى المدينة ، وسلمه الى اهله مكسوراً . وحدّث بقصته وحديثه معه فجعلوا يتعجبون . فقال بعض الناس للمجوسي : كيف حملته بعد شدة جفائه بك ، وقبيح مكافأته احسانك اليه ؟ قال المجوسي : اعتذر اليّ ، وقال مذهبي كيت وكيت ، وقد صار جبلة وطبيعة ثابتة لطول الدؤوب فيه ، وجريان العادة به ، يصعب الاقلاع عنها والترك لها . وانا ايضاً قد اعتقدت رأياً وسلكت مذهباً ، صار لي عادة وجبلة ، فيصعب الاقلاع عنها والترك لها .

(١ : ٢٣٧-٢٣٩)

الدنيا والآخرة لا يجتمعان

واعلم ، يا اخي بان الرغبة في الدنيا مع طلب الآخرة لايجتمعان. فمن زهد في الآخرة رغب في الدنيا ، ومن رغب في الآخرة زهد في الدنيا . وقال المسيح ، عليه السلام في بعض مواعظه بني اسرائيل : اعلموا ان مثل دنياكم مع الآخرة كمثل مشرقكم ومغربكم ، كلما اقبلتم الى المغرب ازددتم من المشرق بعداً ، وكلما اقبلتم الى المشرق ازددتم من المغرب بعداً . وقيل في كتب بعض بني اسرائيل : رغّبناكم في الآخرة فلم ترغبوا ، وزهّدناكم في الدنيا فلم تزهدوا ، وخوّفناكم من النار فلم تخافوا ، وشوّقناكم الى الجنة فلم تشتاقوا ، ووبّخناكم فلم تبكوا . ويقول الله تعالى : يا ابن آدم ، خيري اليك نازل ، وشرّك اليّ صاعد . أتحبب اليك بالغنى ، وانت تتبغض اليّ بالمعاصي . لا يزال يأتيني ، كل يوم ، ملك كريم بقبيح افعالك. يا ابن آدم ، اما تراقبني ؟ اما تعلم انك بعيني ؟ يا ابن آدم اذكرني عند خلواتك وعند حضور الشهوات الحرام ، واسألني ان انزعها من قلبك ، واعصمك عن معصيتي ، وابغّضها اليك ، وايسّر لك طاعتي ، واحبّبها اليك ، وازيّنها في عينيك . يا ابن آدم ، انما امرتك ونهيتك لتستعين بي ، وتعتصم بحبلي ، لئلا تستغني وتتولى عني ، فاعرض عنك ، وانا الغني عنك ، وانت الفقير اليّ . انما خلقتك في الدنيا وسخرتها لك ، لتستعد للقائي ، وتتزود منها للقدوم عليّ ، لئلا تعرض وتخلد الى الارض . واعلم ، يا ابن آدم ، بان الدار الآخرة خير لك من الدنيا ، فلا تختر غير ما اخترت لك ، ولا تكره لقائي ، فانه من كره لقائي كرهت لقاءه ، ومن احب لقائي احببت لقاءه . (١ : ٣٠٥)

آفات الشبع

يروى عن عائشة (رض) انها قالت : اول بلاء حدث في هذه الامة ، بعد ذهاب نبيها صلى الله عليه وسلم ، الشبع وكثرته. وذلك ان القوم ، اذا شبعت بطونهم ، سمنت ابدانهم ، وقست قلوبهم ، وجمحت نفوسهم ، واشتدت شهواتهم . ومن آفات الشبع وكثرة الاكل عفونة القلب ، ومرض الاجساد ، وذهاب البهاء ، ونسيان الرب ، وعمى القلوب ، وهزال الروح ، وسلاح الشياطين ، وجراحة الدين ، وذهاب اليقين ، ونسيان العلم ، ونقصان العقل ، وعداوة الحكمة ، وذهاب السخاء ، وزيادة البخل ، ومزرعة ابليس ، وترك الادب ، وركوب المعاصي ، وترك الفقراء ، وثقل النفس ، وادرار الشهوات ، وزيادة الجهل ، وكثرة فضول القول ، ويزيد في حب الدنيا ، ويُنقص الخوف ، ويُكثر الضحك ، ويُحبّب العيش ، ويُنسي ذكر الموت ، ويهدم العبادة ، ويقل الاخلاص ، ويذهب بالحياء ، ويهيج عادة السوء ، ويُطيل النوم ، ويكثر الغفلة ، ويسبب تفريق الاصحاب ، ويحرج الاعمال ، ويكدر الصفو ، ويذهب الحلاوة من القلوب ، ويحبب الشيطان ، ويبغّض الرحمن ، ويكثر الغم يوم الحساب ، ويقرب من النيران ، ويبعد من الجنان ، لانه سبب المعاصي ، ويحرك الكبر ، ويثبت الحسد ، ويقل الشكر ، ويذهب الصبر ، فهذه خمسون خصلة تهيج من الشبع وكثرة الاكل.
(٢٨١:١)

سياسة

يكون اخلاقك رضية ، وعاداتك جميلة ، وافعالك مستقيمة ، تؤدي الامانة الى اهلها كائناً من كان من وليّ وعدو ، وتأخذ

نفسك بحفظها ، وترعى حقّ من استرعاك حقها ، وتحسن مجاورة جارك ، وتصفي مودة صديقك ، وتخلص المحبة لمحبك ، مع قلة الطمع وازالة الفزع في مستعجل زائل ، وحادث نازل ، وتريد للغير ما تريد لنفسك ...

وسبيلك ان تعوّد نفسك عمل الخير ، لأنه خير ، لا تريد بفعلك عوضاً ، ولا يحملك على فعله خوف ، فمتى فعلت لطلب المكافأة لم يكن خيراً ، وان لم تطلب المكافأة ، وانما اردت الذكر والاسم ، كنت ايضاً منافقاً ، ولم يكن خيراً ، والمنافق لا يستأهل ان يكون في جوار الروحانيين .

واما سياسة الاهل من الاخوة والزوجة والاولاد والعبيد ، ومن يجري منك مجراها في النسبة الجسمانية ، فيجب عليك ان تسوسهم سياسة لا اختلاف فيها ، وتجريهم على عادة لا تعدل عنها الا بموانع مانعة ، واسباب قاطعة ، لئلا ترجع باللوم على نفسك اذا جنوا عليك ، وتغيّروا عما كنت تعهده منهم ، وتعرفه فيهم ، بحسب تغير سياستك ، واختلاف عادتك ، فتنسب التفريط الى نفسك ، فيكثر غمك ، ويبدو همك . فاذا سستهم سياسة الفتهم اياها ، ورتبتهم عليها ، استراحت نفسك . مع ان الاحب الينا ، والاثر عندنا ، الانفراد والوحدة ، ولكن لا يكاد يتهيأ ذلك لجميع اخواننا ، ولا نأمرهم به ايضاً ، لئلا ينقطع الحرث والنسل .

واذا فعلت ذلك احكمت سياسة الاهل ، وخصوصاً النساء ، فاكثر تفقد احوالهن في كل وقت ، فانهن سريعات التلوّن ، كثيرات التغيّر ، يتغيّرنَ مع الساعات ، ويضطربن على الاوقات . فيكون صفحك اليهن كثيراً ، ومن غير شعار منهنّ ان تكون مراعياً

احوالهنّ . ولا يغررك منهنّ صلاح تعرفه فيهنّ ، فقد أنبأناك ان تلونهنّ كثير ، وان استفسادهنّ سهل يسير ، الا من عصمها الله تعالى منهنّ ، وقليل ما هم .

واما اولادك وغلمانك وحواشيك فاياك ان تظهر لهم فاقة بعد ان تقوم بواجبك المفروض عليك . فانه متى ظهر لهم منك اختلال او حاجة نقصت منزلتك ، وقصر موضعك ، فلم يقم لك وزن ، ولا قامت لك هيبة . ولا حاجة بك الى ان تكشف فاقتك الى من لا يزيد شكواك الا ذلاً ومهانة ، بل ضع عذرك عند كل واحد منهم على وجه لا تنسب معه الى فاقة ، وقف فهو اعود واصلح .

(٤ : ٢٨٧-٢٩٩)

فلاسفة العرب

سلسلة دراسات ومختارات

•

ظهر منها :

١ — ابن الفارض	(طبعة ثالثة)
٢ — ابو العلاء المعرّي	(طبعة رابعة)
٣ — ابن خلدون	(طبعة ثالثة)
٤ — الغزالي	جزءان (طبعة ثالثة)
٥ — ابن طفيل	(طبعة ثالثة)
٦ — ابن رشد	جزءان (طبعة ثالثة)
٧ — اخوان الصفاء	(طبعة ثالثة)
٨ — الكندي	
٩ — الفارابي	جزءان (طبعة ثانية)
١٠— ابن سينا	جزءان

للمؤلف ايضاً :

اصول الفلسفة العربية	(طبعة ثانية)
طاغور : مسرح وشعر	